من الفكر السياسى والاشتراكى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة



العالم والغرب

تأليف : أرنولد توينبى

ترجمة روفائيل جرجس
مراجعة على أدهم

من الفكر السياسى والاشتراكى

العالم والغرب

تأليف أرنولد توينبى

ترجمة روفائيل جرجس

مراجعة على أدهم

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والارشاد القومى

الادارة العامة للثقافة

هذه ترجمة كاملة لـكتاب

The World and The West.

By : Arnold Toynbee

مقدمة

إن التصادم بين العالم والغرب قد يثبت بالقياس إلى الماضي أنه أهم حدث فى التاريخ الحديث . فهو مثل بارز على ظاهرة تاريخية لها نظائر أخرى مشهورة فى الماضى . والدراسة المقارنة لمجرى ونتائج هذه المصادمات بين المدنيات التى تعاصر إحداها الأخرى تعتبر أحد مفاتيح فهم تاريخ البشرية .

ويضع هذا الكتاب أمام عين القارئ - لا السامع فقط - محاضرات ريث (Reith)[1] التى ألقاها المؤلف فى سنة ١٩٥٢ بناء على دعوة قدمتها له شركة الاذاعة البريطانية . فنى تلك السنة عندما طلبت منى شركة الاذاعة أن أتولى إلقاء محاضرات « ريث » اقترحت على أن اختار موضوع محاضراتى من الموضوعات التى تناولتها فى المجلدات الأربعة الأخيرة من كتابى « دراسة فى التاريخ » الذى كان تحت الطبع وقتئذ وكان ينتظر نشره فى سنة ١٩٥٤ ، فوقع اختيارى على موضوع « العالم والغرب » . وبعد أن أذيعت محاضرات « ريث » عن هذا الموضوع ونشرت تباعاً فى مجلة المستمع (The Listner) جمعت هنا للنشر مقدما قبل ظهور المجلدات الباقية من كتابى « دراسة فى التاريخ » .

---

(١) جون ريث مهندس مدنى بريطانى شغل فى الحربين العالميتين مناصب هامة فكان مدير الإذاعة البريطانية ، ورئيس مؤسسة الطيران عبر البحار ، ورئيس العمليات الحربية والبحرية فى الحرب الثانية .

وأما هدف هذا الكتاب فهو أن أقدم للقارئ في عرض موجز بسيط موضوعاً تناولته على نطاق أوسع جداً في المجلد الثامن من الكتاب المذكور بحيث إن معالجته في الكتاب الحالي لن تكون تكراراً للجزء المماثل له (المجلد الثامن) من كتاب « دراسة في التاريخ » ولا للاجزاء المماثلة في الكتاب الذي يعتزم مستر د. س. سومرفيل أن يوجز فيه المجلدات الأربعة الأخيرة (٧ — ١٠) من كتاب « دراسة في التاريخ » بالطريقة نفسها التي أوجز بها بإتقان وتمكن المجلدات الستة الأولى من الكتاب المذكور.

ديسمبر سنة ١٩٥٢ ا. ج. ت

محتويات الكتاب

المحاضرة الأولى :

روسيا والغرب

ربما كانت أمثل طريقة لتقديم موضوع هذا الكتاب إلى القارىء إيضاح السبب الذى دعا المؤلف إلى اختيار هذا العنوان للكتاب . فقد يتساءل القارىء : لماذا اختار الكاتب « العالم والغرب » عنوانا للكتاب ؟ أليس الغرب اسما آخر للجزء الذى له أية أهمية من العالم إذا راعينا الأغراض العملية فى الوقت الحاضر ؟ ولعل القارىء يتساءل أيضا : وإذا كان المؤلف يشعر أن عليه ان يقول شيئا عن سائر العالم غير الغربى فلماذا يتحتم عليه أن يضع الكلمتين فى هذا الترتيب ؟ أما كان يمكنه أن يقول : « الغرب والعالم » بدلا من « العالم والغرب » ؟ فلو فعل هذا لكان على الأقل وضع الغرب أولا .

لقد كان اختيار هذا العنوان ، كما هو ، عن عمد ، حتى يمكن ذكر نقطتين تبدوان جوهريتين لفهم الموضوع . أولاهما : أن الغرب لم يكن قط كل العالم الذى له أهمية ، كما أنه لم يكن الممثل الوحيد على مسرح التاريخ الحديث حتى والعالم الغربى فى أوج قوته (ولربما انقضى الآن زمن هذا الأوج) . وأما النقطة الثانية فهى أنه فى التصادم بين العالم والغرب ــ ذلك التصادم الذى استمر نحو أربعمائة أو خمسمائة سنة حتى الآن ، كان العالم ، وليس الغرب ، هو الطرف الذى كان يحصل حتى

الآن على خبرة هامة . إنه لم يكن الغرب هو الذى تلقى الضربة من العالم بل إنه العالم هو الذى أصابته الضربة من الغرب ، وكانت إصابة شديدة ، ولهذا السبب وضعت كلمة العـالم أولا فى عنوان هذا الـكتاب .

فالغربى الذى يريد أن يتصدى لهذا الموضوع عليه أن يحاول لبضع دقائق التخلص من غربيته الكامنة فيه ، وينظر إلى الصدام بين العالم والغرب بأعين الغالبية العظمى غير الغربية من العالم . ومع اختلاف هذه الشعوب غير الغربية فى الجنس واللغة والدين والحضارة ، فإنها إذا سألها أى سائل غربى عن رأيها فى الغرب سمع منها جميعا نفس الجواب سواء أكان المسئولون روسيين أم مسلمين أم هندوسا أم صينيين أم يابانيين أم غيرهم . سيقولون له : إن الغرب كان كبير المعتدين فى العصور الحديثة ، وكل من هذه الشعوب سيواجهه بتجربته للاعتداء الغربى ، سيذكره الروس بأن الجيوش الغربية اجتاحت بلادهم براً فى سنة ١٩٤١ و ١٩١٥ و ١٨١٢ و ١٧٠٩ و ١٦١٠ . وستذكر له شعوب أفريقيا وآسيا أن المرسلين والتجار والجنود الغربيين كانوا منذ القرن الخامس عشر يأتون عبر البحار وينزلون على شواطئهم ومنها يتوغلون فى بلادهم . وسيعيد الآسيويون على مسمعه كيف أن الغربيين فى المـدة ذاتها احتلوا نصيب الأسد مما بقى من الأراضى الخالية فى العالم فى قارات الأمريكتين واستراليا ونيوزيلانده وجنوب أفريقيا وشرقهـا . وسيقول له الأفريقيون ، مذكرين ، إنهم استعبدوا ونقلوا عبر المحيط الأطلسى ليخدموا المستعمرين الغربيين فى الأمريكتين كآلات حية يستخدمها السادة الغربيون لإشباع نهمهم إلى اقتناء الثروة . وستذكره

ذرية السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية أن أسلافهم نحّـوا جانباً ليفسحوا المجال للدخلاء من غرب أوربا ولعبيدهم من أفريقيا .

إن قائمة الاتهام هـذه ستكون مفاجأة لمعظم الغربيين اليوم ، تصدمهم وتحزنهم بل ربما تثير نفوسهم . ويعلم الغربيون من الهولنديين أنهم جلوا عن أندونيسيا ، كما يعلم الغربيون من البريطانيين أنهم أخلوا الهند وباكستان وبورما وسيلان منذ عام ١٩٤٥ . غير أن البريطانيين لا تثقل ضمائرهم حروب عدوانية قاموا بها منذ حرب أفريقيا الجنوبية سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٢ وكذلك الأمريكان منذ الحرب الأمريكية الأسبانية سنة ١٨٩٨ . وهل يسهل علينا أن ننسى أن الألمان الذين حاربوا جيرانهم ومن بينهم الروس فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، هل ننسى أن هؤلاء من الغرب أيضا ، وأن الروس والآسيويين والأفريقيين لا يفرقون تفرقة دقيقة بين الأقوام المختلفة من « الفرنجة » وهو الاسم الشائع فى العالم عن الغربيين إجمالا . ويقول المثل اللاتينى: « عندما يصدر العالم حكمه فإنه يمكنه أن يثق بأنه القول الفصل » . ويبدو على وجه التحقيق أن حكم العالم على الغرب له ما يبرره خلال فترة تقرب من أربعة قرون ونصف كانت خاتمتها سنة ١٩٤٥ . وتدل خبرة العالم للغرب طوال تلك الفترة على أنه كان المعتدى على وجه الإجمال . وإذا كانت الدائرة تدور الآن على الغرب من طريق روسيا والصين ، فإن هذا هو الفصل الأول من القصة التى لم تبدأ إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها . وما فزع الغرب وغضبه من الأعمال العدوانية الروسية والصينية إلا دليلا على أننا نحن الغربيين

لا يزال غريباً علينا اليوم أن نذوق من الألم على أيدى العالم ما أذقناه للعالم أجيالا عدة مضت .

فماذا كانت ، إذن ، تجربة العالم للغرب ؟ ولنبدأ أولا بتجربة روسيا ، لأنها جزء من الغالبية العظمى غير الغربية . ومع أن الروس كانوا ، وما زال كثير منهم ، مسيحيين ، فإنهم ما كانوا قط مسيحيين غربيين . فإن روسيا لم تتحول إلى المسيحية عن طريق روما كما كانت الحال مع إنجلترا ، بل عن طريق القسطنطينية . وبالرغم من أصولهم المسيحية المشتركة فإن المسيحيين الغربيين والشرقيين كانوا دائماً غرباء بعضهم عن بعض ، وكثيراً ما كان التنافر والعداء متبادلين بينهما ، كما لاتزال الحال ـ لسوء الحظ ـ بين روسيا والغرب اليوم ، إذ أصبح كل منهما فيما يمكن أن يسمى ناحية « ما بعد المسيحية » من تاريخه .

هذه القصة المحزنة إجمالا عن علاقات روسيا بالغرب بدأت مع ذلك بفصل أسعد حالا ، لأنه بالرغم من الخلاف بين اسلوب الحياة الروسى والأسلوب الغربى ، فإن روسيا والغرب ساد التفاهم بينهما بدرجة لا بأس بها فى العصور الوسطى الأولى . فقد تبادلت الشعوب التجارة وتزاوجت الأسر المالكة . فمثلا تزوجت ابنة الملك هارولد الإنجليزى أميراً روسياً . ولم يبدأ التنافر إلا فى القرن الثالث عشر حين أخضع التتار روسيا . ولكن سيطرتهم على روسيا كانت وقتية لأنهم كانوا رحّلا قدموا من إقليم الحشائش (استبس) ولم يستطيعوا أن يألفوا حياة الحقول والغابات فى روسيا . وأما خسائر روسيا الدائمة من هذا الفتح المؤقت فلم تكن عن طريق التتار الغزاة بل عن طريق جيرانها الغربيين الذين انتهزوا

فرصة سقوطها ليقتطعوا منها الأطراف الغربية للعالم الروسى فى روسيا البيضاء والنصف الغربى من أكرانيا ويضموها إلى العالم المسيحى الغربى . ولم تسترد روسيا آخر قطعة من تلك الأراضى الفسيحة التى أخذتها منها الدول الغربية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلا فى سنة ١٩٤٥ .

ولقد كان لهذه الفتوح الغربية على حساب روسيا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى تأثير على حياة روسيا فى الداخل وعلى علاقاتها بالمعتدين عليها الغربيين . فإن الضغط الذى وقع على روسيا من الغرب لم يسبب إعراض روسيا عن الغرب فقط ، بل كان أيضاً إحدى الحقائق القاسية للحياة الروسية التى دفعت بالروسيين إلى الخضوع لنير السلطة الروسية الوطنية الجديدة فى موسكو التى فرضت على روسيا ـ على حساب قبولها الحكم الاوتقراطى ـ الوحدة السياسية التى لم يكن لها بد من قبولها إذا أرادت البقاء . ولم يكن من قبيل المصادفة قيام هذه الحكومة الروسية الأوتقراطية الحديثة التكوين فى موسكو لأن موسكو قائمة فى موقع سهل على أيسر طريق لغزو ماتركه من روسيا معتد غربى . فقد سلك هذا الطريق البولنديون سنة ١٦١٠ والفرنسيون سنة ١٨١٢ والألمان سنة ١٩٤١ . ومنذ بواكير القرن الرابع عشر كانت الأوتقراطية والمركزية هما الصفتان الغالبتان على كل نظم الحكم المتعاقبة فى روسيا . وربما كان هذا التقليد المسكوفى الروسى دائماً بغيضاً على نفوس الروس أنفسهم بقدر ما كان بلا شك كريها ومفزعاً لجيرانهم . ولكن الروس تعلموا ، لسوء الحظ ، أن يتحملوا هذا التقليد ربما لمجرد العادة جزئيا ولأنهم من ناحية أخرى شعروا بأنه أخف ضرراً من مصيرهم الآخر ، ألا وهو انهزامهم على يد جيرانهم المعتدين .

إن موقف الاستسلام هذا الذى يتخذه الروس حيال نظام أوتقراطى للحكم أصبح تقليداً فى روسيا ، وهو بالطبع أحد الصعوبات الرئيسية ، كما نراها نحن الغربيين ، فى العلاقات بين روسيا والغرب اليوم . فالغالبية العظمى من الشعب تشعر بأن الطغيان شر اجتماعى لا يطاق . ولقد قمعنا الطغيان عندما رفع رأسه بين ظهرانينا فى الغرب فى شكل الفاشية والاشتراكية الوطنية ، ودفعنا فى ذلك ثمنا باهظا . ونشعر بنفس الكراهية والارتياب فى شكله الروسى سواء سمى بالحكم القيصرى أو النظام الشيوعى ، ولا نريد أن نرى ذلك النوع من العسف ينتشر ، ونهتم بنوع خاص بخطر هذا النظام على المثل العليا الغربية للحرية بعد أن وجدنا أنفسنا مرغمين على اتخاذ موقف الدفاع لأول مرة فى تاريخنا منذ الحصار التركى لمدينة فينا سنة ١٦٨٢ — ١٦٨٣ . وقلقنا الحالى ، مما يبدو لنا أنه تهديد جاء من روسيا للغرب بعد الحرب ، له كل ما يبرره فى اعتقادنا . وعلينا فى نفس الوقت أن نحرص على ألا نسمح للانعكاس الذى طرأ على العلاقات بين روسيا والغرب منذ سنة ١٩٤٥ أن يضللنا فى انشغالنا بالحاضر فينسينا الماضى . وعندما ننظر إلى الصدام بين روسيا والغرب نظرة المؤرخ لا الصحفى نرى أن الروس ظلوا عدة قرون وإلى سنة ١٩٤٥ ينظرون شذراً إلى الغرب للسبب ذاته الذى نشعر أنه يجعلنا ننظر شذراً إلى روسيا اليوم .

وخلال القرون القليلة الماضية ازداد خطر التهديد من الغرب لروسيا — ذلك التهديد الذى ظل مستمراً من القرن الثالث عشر حتى سنة ١٩٤٥ ، بسبب قيام ثورة تكنولوجية فى الغرب طال عليها العهد ولم يبدو عليها بعد ما يدل على أنها أخذت فى الخمود .

وعند ما استخدم الغرب الأسلحة النارية اقتفت روسيا أثره ، واستعملت تلك الأسلحة الغربية فى القرن السادس عشر فى قهر التتار فى وادى نهر الفولجا وأناس أكثر بداوة منهم فى جبال الاورال وسيبريا . غير أنه فى سنة ١٦١٠ تمكن البولنديون بفضل تفوق الأسلحة الغربية من احتلال موسكو والاحتفاظ بها مدة عامين ، كما استطاع السويديون أيضا فى الوقت ذاته تقريبا أن يحرموا الروس من منفذهم على بحر البلطيق فى نهاية خليج فنلندة . فكان رد الروس على أعمال الغرب العدوانية هذه أنهم اتبعوا « تكنولوجية » الغرب جملة ومعها ذلك القدر من أسلوب الحياة الغربى الذى لم يمكن الفصل بينه وبين « تكنولوجية » الغرب .

وكان النظام المسكوفى الأوتقراطى المركزى يتميز بأن الثورة الفنية (التكنولوجية) وما صحبها من ثورة اجتماعية فى روسيا فى نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر كان يجب أن يفرضها على روسيا من فوق إلى أسفل حكم عبقرى واحد ، هو بطرس الأكبر ، تلك الشخصية الهامة فى فهم علاقات العالم بالغرب ، ليس فقط فى روسيا ، بل فى كل مكان . ذلك أنه يمثل النوع الأصلى للمصلح الأوتوقراطى الذى أخذ بالأساليب الغربية والذى خلص العالم خلال القرنين الأخيرين والنصف ، من الوقوع بأجمعه تحت السيطرة الغربية بإرغامه العالم على تدريب نفسه على مقاومة العدوان الغربى بأسلحة غربية . فالسلطان سليم الثالث ومحمود الثانى والرئيس كمال أتاتورك فى تركيا ، ومحمد على فى مصر و « شيوخ رجال الدولة » الذين اصطنعوا الثورة الغربية

فى اليابان فى الستينيات من القرن الثامن عشر — كل أولئك كانوا يقتفون أثر بطرس الأكبر ، سواء عن وعى أو عن غير وعى منهم .

لقد دفع بطرس الأكبر روسيا إلى سباق تكنولوجى للتصنيع مع الغرب ، ولا تزال روسيا تجد فى هذا السباق ولم تستطع روسيا حتى الآن أن تتذوق طعم الراحة ، لأن الغرب كان على الدوام يقفز قفزات جديدة . فمثلا استطاع بطرس وخلفاؤه فى القرن الثامن عشر أن يجعلوا روسيا تقترب من الجرى جنباً إلى جنب مع الغرب بدرجة كانت كافية فقط لأن تمكنها من هزيمة الغزاة الغربيين السويديين فى سنة ١٧٠٩ والغزاة الغربيين الفرنسيين فى سنة ١٨١٢ . ولكن جاء القرن التاسع عشر وجاءت معه الثورة الصناعية الغربية وبها قفز الغرب قفزة جعلته يترك روسيا خلفه ، فهزمها الغزاة الألمان الغربيون فى الحرب العالمية الأولى ، كما هزمها البولنديون والسويديون قبل ذلك بمائتى سنة .

واستطاعت الحكومة الأوتقراطية الشيوعية الحالية أن تقصى النظام القيصرى عن الحكم فى روسيا بسبب هزيمة روسيا من التكنولوجية الصناعية الغربية فيما بين سنتى ١٩١٤ و ١٩١٧ . وظل النظام الشيوعى من سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٤١ يوفر لروسيا مرة أخرى ما وفره لها القيصر بطرس قبل ذلك بمائتين وثلاثين سنة .

وللمرة الثانية فى الفصل الحديث من تاريخ روسيا يضعها حاكم أوتقراطى على طريق سباق إجبارى للحاق بالتكنولوجية الغربية التى كانت قد تقدمت عليها . وقد برّر السبيل الاستبدادى الذى سلكه ستالين لصبغ روسيا بالصبغة التكنولوجية الغربية محنة معركة حربية ،

كما حدث مع بطرس . ذلك أن الثورة التكنولوجية الشيوعية هزمت الغزاة الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، كما هزمت ثورة بطرس الغزاة السويديين فى سنة ١٧٠٩ والغزاة الفرنسيين فى سنة ١٨١٢ . وبعد أن كمل تحرير الأراضى الروسية من الاحتلال الألمانى الغربى فى سنة ١٩٤٥ ببضعة أشهر ألقى حلفاء روسيا الأمريكان الغربيون قنبلة ذرية على اليابان ، فكان إلقاؤها إعلانا بنشوب ثورة تكنولوجية غربية ثالثة . وهكذا نرى اليوم وللمرة الثالثة روسيا مضطرة إلى الاشتراك فى سباق محاولة اللحاق بالتكنولوجية الغربية التى اندفعت للأمام لخلفتها وراءها . ولا تزال نتيجة الشوط الثالث فى المنافسة الدائمة بين روسيا والغرب فى علم الغيب . غير أنه قد وضح أن تجديد السباق التكنولوجى هذا هو أحد الصعاب الخطيرة جدا التى تحدث ارتباكا فى العلاقات بين هذين المجتمعين المسيحيين سابقا .

أما « التكنولوجية » فما هى بالطبع إلا اسم يونانى طويل يطلق على كيس من العدد والآلات . وعلينا أن نسأل أنفسنا : ما هى العدد التى يعول عليها فى هذا التسابق على استخدام العدد باعتبارها وسيلة للقوة ؟ فالمنسج الكهربائى أو القاطرة هما بلا شك من الآلات التى تستخدم لهذا الغرض . وكذلك الحال مع المدفع أو الطائرة أو القنبلة . ولكن ليست كل الآلات من النوع المادى . فهناك أيضا الوسائل الروحية وهذه أعظم فاعلية من كل الوسائل الأخرى التى صنعها الإنسان . فالمذهب السياسى مثلا يمكن أن يكون عدة ، وفى الدورة الجديدة من التنافس بين روسيا والغرب ، وهى الدورة التى ابتدأت

سنة ١٩١٧ ألقى الروس هذه المرة فى كفتهم من الميزان مذهبا عادل فى ثقله العدد المادية لمنافسيهم الغربيين ، كما عادل السيف المذكور فى القصة الرومانية عن افتداء روما من الغاليين ، والذى ألقاه[1] « برينوس » عادل فى ثقله الذهب الرومانى .

فالشيوعية ، إذن ، سلاح ، وهو سلاح من أصل غربى مثل القنابل والطائرات والمدافع . فلو لم يخترعه غربيان عاشا فى القرن التاسع عشر هما كارل ماركس وفريدرك إنجلز اللذان تربيا فى إقليم نهر الراين وقضيا أحسن جزء من حياتهما العاملة فى مدينة لندن ، ثم بعد ذلك فى مانشستر ، لما أصبحت الشيوعية مذهب روسيا السياسى . ذلك أنه لم يكن فى التقاليد الروسية ما كان يمكن أن يؤدى بالروس إلى اختراع الشيوعية بأنفسهم . ومن المؤكد أنهم ما كانوا قط يحلمون بهذا السلاح لو لم يكن موجودا فى الغرب معدا لأن يطبقه النظام الروسى الثورى فى سنة ١٩١٧ .

والبلشفيك باستعارتهم فى سنة ١٩١٧ مذهبا سياسيا من الغرب ، علاوة على ثورة صناعية غربية ، يستخدم سلاحا ضد الغرب ، إنما كانوا يتحولون تحولا جديدا كبيرا عن مجرى التاريخ الروسى . فتلك كانت أول مرة فيها استعارت روسيا مذهبا من الغرب . ولقد لاحظنا فيما سبق أن المسيحية كانت قد جاءت إلى روسيا ، ولكن ليس

---

(١) برنوس Brennus قائد القوط الذى عبر جبال الأبينين فى سنة ٣٩٠ قبل الميلاد وهزم الرومان فى آليا (Allia) واستولى على روما وبعد أن حاصر الكابيتول لمدة ستة أشهر ترك المدينة بعد أن دفع له مبلغ ألف (مثقال) من الذهب .

من الغرب بل من بيزنطه حيث كان للمسيحية طابعها وروحها الخاصان غير الغربيين ، وكانت هناك محاولة فى القرن الخامس عشر لفرض المسيحية الغربية على روسيا ولكنها باءت بالفشل . ففى سنة ١٤٣٩ ميلادية وفى مجلس اكليروس عقد فى فلورنسا اعترف ممثلو الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فيما تبقى حينئذ من الإمبراطورية البيزنطية اعترافا على غير رغبتهم بالسيادة الكنسية للكرسى البابوى الرومانى ، على أن يقوم العالم الغربى فى مقابل ذلك بتخليص القسطنطينية من الغزو التركى . وكان رئيس أساقفة موسكو التابع لبطريرك القسطنطينية اليونانى حاضراً فى اجتماع المجلس فأدلى بصوته بنفس الطريقة التى اتبعها إخوانه ممثلو الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية . ولكنه عند ما عاد إلى موسكو رفض اعترافه بسيادة بابا روما وعزل من منصبه .

وبعد ذلك بمائتين وخمسين سنة عند ما ذهب بطرس الأكبر إلى الغرب ليتعلم المهارة اللازمة لتطبيق تكنولوجية الغرب لم يكن هناك سبيل لأن يطلب من روسيا اتباع الصورة الغربية للمسيحية ثمنا لتعليمها أسرار الكفاية الفنية الغربية . وقبل نهاية القرن السابع عشر كان فى الغرب تحول ليس فقط عن التعصب الدينى بل عن الدين نفسه نتيجة للضجر الذى حل بالغرب من جراء حروبه الدينية الخاصة . فالغرب ، الذى صارت روسيا تلميذته فى أيام بطرس ، كان عالما بغير دين . والقلة من الروسيين الذين هجروا بساطتهم الأولى وأصبحوا يعملون على صبغ روسيا بالصبغة الغربية ساروا على منوال معاصريهم الغربيين فأصبحوا ثائرين تجاه الصورة الروسية للمسيحية بدون اتباع

أية صورة غربية للمسيحية بدلا منها . ولذلك عندما اتبعت روسيا الشيوعية فى سنة ١٩١٧ فإنها إنما كانت تخرج على تقاليدها باعتناقها مذهبا غربيا لأول مرة فى تاريخها .

ولا بد أن القارئ قد لاحظ أيضا أن هذا المذهب الغربى الذى اعتنقته روسيا فى سنة ١٩١٧ كان مذهبا ينفع بنوع خاص روسيا باعتباره سلاحا غربيا يستخدم فى شن حرب روحية ضد الغرب . ففى الغرب الذى قامت فيه الشيوعية كان هذا المذهب الجديد هرطقة . فقد كان نقدا غربيا لفشل الغرب فى تطبيق مبادئ المسيحية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى هذا المجتمع المسيحى بالاسم . وإن مذهبا جاء أصلا من الغرب ، وكان فى نفس الوقت عريضة الدعوى ضد تصرف الغرب لهو بطبيعة الحال عين السلاح الروحى الذى يود أى خصم للغرب أن يلتقطه ليصوبه إلى صدر صانعيه . وبهذا السلاح فى يد روسيا استطاعت أن تسير فى حربها ضد الغرب إلى عقر دار عدوها على المستوى الروحى . ولما كانت الشيوعية قد جاءت أصلا نتاجا لضمائر غربية غير مستريحة ، فإنها لذلك تستطيع أن تجد قبولا لدى ضمائر غربية أخرى من نفس الطراز عندما تعكسها الدعاية الروسية إلى الغرب ثانية . ولذلك نجد الآن ولأول مرة فى تاريخ العالم الغربى منذ نهاية القرن السابع حين كاد ينقطع سيل معتنقى الإسلام من الغربيين . نجد الغرب وقد وجد نفسه مهددا بتفكك روحى من الداخل وبهجوم عليه من الخارج . وبتهديد الشيوعية للغرب بتقويض أركان مدنيته على هذه الصورة فى أرضه ذاتها ، قد برهنت على أنها سلاح مضاد للغرب أكثر فاعلية فى أيد روسية من أى سلاح مادى فى الوجود .

وقد خدمت الشيوعية روسيا أيضاً باعتبارها سلاحاً جذب إلى المعسكر الروسى ، الربع الصينى من الجنس البشرى وأجزاء أخرى من تلك الغالبية من البشر التى لا تعتبر روسية ولا غربية . ونحن نعلم أن نتيجة الكفاح لكسب ولاء أولئك المحايدين قد يكون عاملا حاسماً فى نتيجة الصراع الروسى الغربى على وجه الإجمال لأن هذه الغالبية التى لا تنتمى إلى أحد المعسكرين قد تكون هى التى ترجح كفة على أخرى فى ميزان التنافس بين روسيا والغرب على السيطرة العالمية . فالشيوعية اليوم تستطيع أن تتقرب من طبقة الفلاحين فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على أساس مزدوج حينما تكون روسيا هى التى تزكى الشيوعية لديهم . فيستطيع المتحدث الروسى أن يقول لفلاحى آسيا أولا : إذا اتخذتم من روسيا مثلا لكم منحتكم الشيوعية القدرة على الوقوف ضد الغرب كما استطاعت روسيا الشيوعية أن تقف ضده اليوم . ويستطيع المتحدث الروسى أيضاً أن يستهوى فلاحى آسيا بما تدعيه الشيوعية من قدرة على التخلص من عدم المساواة الزائدة عن الحد ، بين القلة الغنية والكثرة الفقيرة فقراً مدقعاً فى البلاد الآسيوية ، بينما أصحاب الأعمال الخاصة لايريدون التخلص من عدم المساواة هذه حتى وإن استطاعوا . غير أن الآسيويين المتذمرين ليسوا وحدهم الذين تجد الشيوعية طريقها إلى قلوبهم فهى تجد قبولا من جميع الناس لأنها تستطيع أن تدعى أن تقدم للبشرية الوحدة التى هى البديل الوحيد لإفناء الذات فى عصر ذرى كهذا .

وإنه ليبدو فى هذا الصدام بين روسيا والغرب كأن دور المبادأة الروحية ، وإن لم يكن التقدم التكنولوجى ، قد انتقلت على أية حال فى

الوقت الحاضر من الجانب الغربي إلى روسيا . غير أننا نحن الغربيين لن نستسلم لهذه الحال ، لأن هذه الهرطقة الغربية - الشيوعية - التي اعتنقها الروس تبدو للغالبية العظمى من الشعب في الغرب أنها تعليم وأسلوب حياة فاسدان مضللان مؤديان إلى التهلكة . ورجل اللاهوت قد يعرب عن هذا الرأي بالقول إن كارل ماركس الزعيم الهرطوقي المصري الغربي العظيم قد ارتكب من الخطأ الذهني والانحراف الأدبي ما يتميز به الهرطوقي . فهو إذ وضع أصبعه على نقطة واحدة في التصرف السليم كانت في حاجة صارخة إلى الإصلاح غاب عن بصره كل الاعتبارات الأخرى ، ولذلك أوجد علاجاً أسوأ من الداء .

غير أن نجاح الروس الحديث في اقتناص القدرة على المبادأة منا نحن الغربيين باعتناق الضلالة الغربية التي تسمى الشيوعية ونشرها في كل العالم في غمامة من الغاز السام المضاد للغرب - هذا النجاح لا يعني بطبيعة الحال أن الشيوعية مآلها الانتصار . ذلك أن نظرة ماركس تبدو في عيون غير الماركسيين أنها أضيق كثيراً وأسوأ اعوجاجا من أن يحتمل لها أن ترضى دواما رغبات القلوب والعقول البشرية . لأجل كل هذا يبدو النجاح الذي أحرزته الشيوعية حتى الآن كأنه نذير لأمور مستقبلة . وما تؤكده لنا الشيوعية هو أن الصدام الحالي بين العالم والغرب يتحول الآن من المستوى التكنولوجي إلى المستوى الروحي . وقد يلقي تاريخ الصراع العالمي القديم بين اليونان وروما بعض الضوء على الفصل التالي من القصة الذي لا يزال بالنسبة لنا في طي المستقبل . ولكن قبل أن نلقي هذه النظرة علينا أن نرى ماذا يفعل كل من الإسلام والهند والشرق الأقصى في صدامه الحالي مع كلا الغرب وروسيا .

المحاضرة الثانية :

الإسلام والغرب

أثرنا فى المحاضرة الأولى نقطتين تتعلقان باصطدام روسيا بالغرب : أولاهما أن روسيا تمكنت من الثبات أمام الغرب باستخدام أسلحة الغرب ، وثانيتهما أن أحد هذه الأسلحة الغربية التى استخدمتها روسيا كان مذهباً وأنها باستخدام الشيوعية ـ وهى مذهب غربى ـ تمكنت من التحول من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم المضـــاد الذى يسبب لنـا الآن كثيراً من القلق فى الغرب . وقصة علاقات روسيا بمجتمعنا الغربى فى جيلنا هذا هى من بعض الوجوه تـكرار لقصة أقدم منها لعبت فيها المدنية اليونانية الرومانية السابقة دور المدنية الغربية الحديثة ، وقام الإسلام بدور روسيا .

لقد قيل عن الشيوعية إنها خروج على المسيحية ، وينطبق نفس الوصف على الإسلام كذلك . فالإسلام مثله مثل الشيوعية ، شق طريقه على أنه برنامج إصلاح يعالج مساوئ ممـارسة المسيحية فى وقته . ويبين لنـا نجاح الإسلام فى أيامه الأولى مقدار قوة أثر الإسلام وهو يعمل على الإصلاح حين يأبى المعتقد المحافظ الذى يهاجمه البرنامج الجديد ، إصلاح طرقه . ففى القرن السابع من العصر المسيحى حرر العرب المسلمون سلسلة من البلاد الشرقية من النفوذ الإغريقى الرومانى . وتمتد

هذه السلسلة من سوريا شرقا عبر شمال إفريقيا ومنها إلى إسبانيا ، مع أنها بقيت تحت حكم اليونان أو الرومان قرابة ألف عام ، أى منذ قهر الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية ، وتغلب الرومان على قرطاجنة. وبعد ذلك فيما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر واصل المسلمون انتصاراتهم على مراحل فأخضعوا كل الهند تقريبا وانتشر دينهم انتشارا سلميا إلى أبعد من حدود الهند ، فامتد إلى اندونيسيا والصين فى الشرق وإلى إفريقيا الاستوائية فى الجنوب الغربى . وكذلك الحال مع روسيا كما رأينا ، فإنها كانت فى أخريات العصور الوسطى خاضعة للتتار الذين اعتنقوا الإسلام ، كما قهر الأتراك العثمانيون المسلمون باقى العالم المسيحى الأورثوذكسى الشرقى فى آسيا الصغرى وجنوب شرق أوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . فقد حاصر الأتراك مدينة فينا للمرة الثانية فى تاريخ لا يرجع بنا إلى أكثر من عام ١٦٨٢ — ١٦٨٣ . ومع أن فشل ذلك الحصار كان بدء تحول التيار لصالح الغرب فى عراكه مع الإمبراطورية العثمانية المعتدية ، فإن علم الهلال كان لا يزال يرفرف على الساحل الشرقى لبحر الأدرياتيك مقابل « كعب » إيطاليا حتى عام ١٩١٢ .

إن تلك الانتصارات الحربية والسياسية الهائلة فى الفصول الأولى من تاريخ الإسلام توضح لنا السبب فى أن الأتراك وغيرهم من الشعوب الاسلاميه قد تباطأوا فى اتباع سياسة بطرس الأكبر فى الوقوف ضد الغرب باستخدام أسلحة الغرب وعدده ونظمه وآرائه . لقد بدأ صبغ بطرس الأكبر لروسيا بصبغة التكنولوجية الغربية فى أقل من مائة سنة

بعد أن كانت روسيا قد اجتازت تجربة مشاهدتها احتلال الغـزاة البولنديين الغربيين لموسكو فيما بين سنتى ١٦١٠ و ١٦١٢ . ومن الناحية الأخرى نجد أنه قد انقضت أكثر من مائة سنة على حلول الكارثة بالأتراك فى ڤينا سنة ١٦٨٣ قبل أن يتخذ أحد السلاطين الأتراك أول خطوة نحو تدريب المشاة الأتراك على النمط الغربى ، كما انقضى ٢٣٦ عاما قبل أن يلهب رجل تركى من رجال الدولة قلوب بنى وطنه ويحملهم على اتباع أسلوب الحياة الغربية اتباعاً كلياً وبدون أى تحفظ .

وكان الدافع إلى الإصلاحات الحربية التى أدخلها السلطان سليم الثالث الذى جلس على العرش فى سنة ١٧٨٩ تلك الصدمة التى أصابت تركيا من جراء الهزيمة التى منيت بها على يدى روسيا فى الحرب الروسية التركية العظمى التى وقعت فيما بين سنتى ١٧٦٨ ، ١٧٧٤ . ذلك أن الأتراك كانوا يظنون حتى ذلك التاريخ أن الروس أبناء عمومة رعاياهم من البلغار واليونان المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين المحتقرين لديهم . والآن قد حلت بالأتراك الهزيمة الماحقة على أيدى أولئك الروس الأجلاف ، لأن الروس كانوا قد أتقنوا الأسلوب الحربى الغربى . وأما عن حركة صبغ تركيا بالصبغة الغربية الكاملة التى قام بها مصطفى كمال أتاتورك فى سنة ١٩١٩ ، فإننا قد نشك فى أنه حتى عمق نظر أتاتورك الخيالى وقوته الدافعة الجبارة كان يمكن أن يصادفها النجاح فى زحزحة الأتراك عن رجعيتهم طويلة العهد لو لم يجد الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى أنفسهم فى مواجهة موقف صعب لامهرب منه كان عليهم فيه أن يختاروا بين اتباع أساليب المدنية الغربية كاملة أو الفناء العاجل .

والواقع أن الهجوم الغربى المضاد على العالم الإسلامى الذى كان لابد له أن يحدث إن عاجلا أو آجلا بعد الفشل الذى حاق بالأتراك فى ڤينا ـ هذا الهجوم المضاد قد أخرته ذكريات الغرب الطويلة عن الشجاعة التاريخية للأتراك وغيرهم من الشعوب الإسلامية الأخرى . وكان رد العالم الغربى على فتح الإسلام للعالم المسيحى الأرثوذكسى الشرقى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لا أن يقوم بهجوم جبهى جديد على العالم الإسلامى على غرار الحروب الصليبية التى منى فيها بالفشل الذريع ، بل أن يقوم بتطويق الإسلام عن طريق إخضاع المحيط . فالطواف بحراً حول إفريقيا قد مكن ملاحى البرتغال الغربيين من الوصول إلى الساحل الغربى للهند قبل مجىء المغول إليها براً من أواسط آسيا ببضع سنين ، وكان هؤلاء آخر موجة من غزاة الهند المسلمين . كما أن عبور الأسبان للمحيطين الأطلسى والهادى عن طريق المكسيك قد فتح فى جزائر الفيلبين جبهة جديدة فى جنوب شرق آسيا بين عالم مسيحى غربى وإسلام كانا حتى ذلك الوقت جارين فقط على الجانب الآخر من الكرة الأرضية . أى فى وادى نهر الدانوب وغرب البحر الأبيض المتوسط . وقبل نهاية القرن السادس عشر كان الغرب فى الواقع قد ألقى الحبل حول عنق الاسلام بفضل إخضاعه المحيط ، ولكنه لم يجسر على شد الحبل وتضييق الخناق على الاسلام حتى القرن التاسع عشر . ذلك أن تلك الذكريات الدائمة عن شجاعة المسلمين الحربية عند الجانبين قد أبقت على حذر الغرب ورضاء المسلمين عن أنفسهم حتى ذلك التاريخ المتأخر .

بيد أن التجربة التى أبطلت فعل تلك الرقية ـ رضاء المسلمين عن أنفسهم ـ ببطء كانت الهزيمة العسكرية المتكررة التى حلت بالامبراطورية العثمانية والدول الإسلامية الأخرى على يد خصومهم المجهزين بالأسلحة الغربية وبالعلم وطرق تطبيقه ، وهى عصب الفن الحربى الغربى الحديث . كما كان رد فعل هذه التجربة على المسلمين هو نفس ما كان على الروس .

فقد حدث فى تركيا بين سنتى ١٧٨٩ ، ١٩١٩ وفى روسيا من سنة ١٦٩٩ إلى سنة ١٨٢٥ أن كان الزعيم الثورى الذى أراد أن يطبق الأساليب الغربية فى كلتا الحالين ضابطا بحريا أو بريا . وكان هذا يدعو إلى الغرابة لدى مفكرى الغرب ، لأن هيئة الضباط المحترفين فى القوات المحاربة فى البلاد الغربية تميل إلى أن تكون معقل الآراء المحافظة، لا أن تكون تربة خصبة للثورة . ومع ذلك فهذه حقائق لا تقبل الجدل . ففى روسيا كان أكبر عون للقيصر بطرس الأكبر فى تنفيذ برنامجه الثورى « لتغريب »[1] بلاده هم ضباط حرسه الشبان . وبعد أكثر من مائة سنة من عهد بطرس ، كان واضعو خطة ثورة سنة ١٨٢٥ الفاشلة ضد القيصر المحافظ ، نقولا الأول ، كذلك من ضباط الجيش الذين أصابتهم عدوى الآراء السياسية الغربية وقتئذ فى سنة ١٨١٤ حين كانوا يخدمون فى جيش الاحتلال الدولى فى فرنسا . وفى القرن التاسع عشر كان أحد الأمثلة الصحيحة لمجرى حياة زعيم أو نبى روسى ثورى أن يولد ابنا لصاحب أملاك ثرى وأن يدخل الخدمة العسكرية أو المدنية

---

(١) أى لصبغ بلاده بالصبغة الغربية .

وأن ينشر مقالات فلسفية فى مجلة أدبية وأن يتقاعد من الخدمة الحكومية فى سن مبكرة وأن يقضى بقية العمر معتمداً على دخل ثابت يعيش منه ويخدم قضية الاصلاح الاجتماعى والسياسى فى روسيا وفق النظم الغربية. وكذلك كانت الحال فى تركيا فى جوهرها ، ذلك أن السلطان سليم الثالث وهو الرائد غير الناجح فى هذا المضمار وخلفه السلطان محمود الثانى الذى كان أعظم أثرا منه بدأ كلاهما فى تشكيل وحدات عسكرية مدربة وفق الأساليب الغربية . وفى الثورة التركية التى قامت سنة ١٩٠٨ ، والتى كانت الجزء الناجح المقابل لثورة ١٨٢٥ الروسية الفاشلة ، كان ضباط الجيش من الشبان هم الأرواح المحركة للثورة .

وأما فى حالة تركيا فالسبب فى بروز صغار الضباط فى حركة « التغريب » واضح . فإن الغرض من الثورة التركية فى سنة ١٩٠٨ كان توطيد أركان الدستور البرلمانى التركى سنة ١٨٧٦ الذى كان يرمى إلى صبغ تركيا بالصبغة الغربية ، والذى كان قد أبطله على الفور تقريبا السلطان الرجعى عبد الحميد الثانى . فإن استراتيجية عبد الحميد السياسية خلال حكمه المطلق الذى دام ثلاثين عاما كانت أن يتأكد من أن التحرر الغربى لن يرفع رأسه مرة أخرى فى تركيا أبدا ، وذلك بقمع كل صور « التفكير الخطر » . ولذلك عمد فى النظام الذى وضعه إلى وضع رقابة شديدة على الكتب وإشراف محكم على التعليم . غير أن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة فى حكم عبد الحميد ، الذى كان تنظيمه قائما على حجب النور عن الشعب ، كان تعليم تلاميذ الحربية وإعدادهم للخدمة فى جيوش القتال المحترفة . وكان عبد الحميد يرجف من الثورة ولكنه كان فى نفس

الوقت له من الذكاء ما جعله يدرك أنه سيخسر إمبراطوريته بطريقة أخرى ، وذلك عن طريق الغزو من ناحية دولة أخرى ذات كفاية حربية ، إذا لم يمكن تلاميذ الحربية التركية من مجاراة الغرب فى تقدمه فى العلوم العسكرية . ولقد حاول بطبيعة الحال أن يبقى التعليم الغربى لهؤلاء التلاميذ فى أضيق حدوده الممكنة . ولكنه ما أن سمح لهؤلاء الشبان الأتراك أن يتعلموا اللغات الغربية ليتمكنوا من دراسة الكتب الحربية الغربية المقررة حتى تعذر إبقاء عقولهم بمعزل عن الآراء السياسية الغربية . لذلك كان هؤلاء الطلاب العسكريون الطبقة الوحيدة فى تركيا « الحميدية » التى كانت قادرة على إبقاء نافذة فكرية مفتوحة تدخل منها التأثيرات الغربية . وكان هذا هو السبب فى أن ذلك الجيل الأصغر من هيئة ضباط الجيش كان رأس الحربة فى هجوم جديد من التحرر الغربى على تركيا فى سنة ١٩٠٨ بعد حكم غاشم مظلم دام ثلاثين عاما .

إن ضرورة تدريب الجيش التركى على الأساليب الغربية ، تلك الضرورة التى سلم بها رجعى متطرف مثل السلطان عبد الحميد الثانى كان قد اعترف بها ، كما ذكرنا ، سلفه السيء الحظ والمتحرر الفكر سليم الثالث قبل عهد هذا الطاغية بمائة عام . ولكن فى هذا الفصل الأول من القصة حتى أولئك الذين كانوا مقتنعين بضرورة « التغريب » فى تركيا لم يكن فى قلوبهم حب لتلك المدنية الغربية الغريبة عنهم التى كانوا يدخلونها عامدين فى بلادهم . لقد كان قصدهم ألا يأخذوا من الثقافة الغربية إلا أقل جرعة تكفى لبقاء « رجل أوربا المريض » حيا . وكانت روح الحقد هذه السبب فى أن محاولات الاصلاح الغربى المتوالية فى تركيا كانت

تمنى بالفشل . كما كان حكم التاريخ على تلك المدرسة القديمة من الأتراك الراغبين فى إدخال الاصلاح الغربى هو « أن الجرعة فى كل مرة كانت أقل مما يجب ومتأخرة أكثر مما يجب » . لقد كانوا يتمنون أن يجعلوا تركيا قادرة على الثبات فى الحروب أمام الدول الغربية مثل النمسا أو « المستغربة »(1) مثل روسيا بمجرد وضع الزى العسكرى الغربى على أجسام الجنود الأتراك والأسلحة الغربية فى أيديهم وتزويد الأتراك بالتدريب المهنى الغربى . كما كانوا يريدون أن يبقوا سائر نواحى الحياة التركية على أساسها التقليدى الاسلامى . وأما السبب فى أن أقل جرعة من « التغريب » قد فشلت ، وكان لابد أن تفشل ، فهو لأنها كانت تتعارض مع حقيقة أغمض عنها المصلحون الأول من الأتراك العسكريين عيونهم ، بينما فطن لها بطرس الأكبر بعبقريته . وتلك الحقيقة هى أن أية مدنية أو أى أسلوب من أساليب الحياة كل لا يتجزأ ، فيه تتماسك كل الأجزاء معا ويعتمد كل واحد منها على الآخر .

ولنضرب لذلك مثلا فنقول : إن تفوق الغرب على سائر العالم فى فن الحرب ابتداء من القرن السابع عشر فصاعدا لا يرجع فقط إلى الأسلحة الغربيـــة أو التمرين والتدريب الغربيين ، ولا حتى إلى « التكنولوجية » المدنية التى توفر المعدات الحربية . إن هذا التفوق لا يمكن فهمه بدون أن ندخل فى حسابنا كل عقلية المجتمع الغربى ونفسيته فى وقته . والواقع هو أن الفن الحربى الغربى كان دائما ناحية واحدة من نواحى أسلوب الحياة الغربى . ولذلك فإن أى مجتمع غريب يحاول أن يكتسب الفن بدون أن يحاول أن يحيا الحياة ذاتها لابد أن

(1) أى المصطبغة بالصبغة الغربية .

يفشل فى إتقان الفن . والعكس صحيح ، فإن أى ضابط غير غربى ، روسيا كان أم تركيا نجح فى مهنته ووصل إلى المستوى الغربى العادى ، لم يتيسر له ذلك إلا باكتساب الكثير من المدنية الغربية مما لا يوجد فى الكتب المقررة أو ساحة العرض العسكرى . والحقيقة أن الحل على أساس الأخذ بأقل ما يمكن من الحضارة الغربية الذى سعت إليه تركيا طويلا لمسألتها الغربية ، التى كانت تزداد الحاجة إليها شدة لم يكن حلا على الاطلاق ، ولم يكن أمامها إلا إحدى نهايتين عمليتين للقصة . فكان على الأتراك فى النهاية إما أن يدفعوا ثمن خطئهم فى تعاطى أقل الجرعات من المدنية الغربية ، بالخضوع والاستسلام ، وإما أن ينجوا أنفسهم من الفناء بالأخذ بالأساليب الغربية بكل قلوبهم وعقولهم وقواهم . وبعد أن كانوا قد وصلوا إلى حافة الهاوية بسلوكهم السبيل الأول تمكنوا من النجاة بالاندفاع ، قبل فوات الأوان ، فى طريق الأخذ بأساليب المدنية الغربية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك ، أخذا لا حدود له .

لقد كان مصطفى كمال أحد صغار الضباط الذين أشربوا الآراء الغربية أثناء تلقيهم التعليم العسكرى الفنى الغربى فى أواخر عهد النظام الحميدى . وكان مصطفى كمال قد لعب دورا فعالا فى ثورة سنة ١٩٠٨ . وقد واتت مصطفى كمال الفرصة حين كانت تركيا فى حالة البؤس نتيجة هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى مع حليفتها ألمانيا . وقد كان من فطنة كمال أنه رأى أن الأخذ بأنصاف الأساليب الغربية التى كانت دائما وبالا على تركيا سيكون أيضا قاضيا عليها فى وقته . وكان له أيضا من قوة الشخصية ما مكنه من جعل مواطنيه يسيرون تحت قيادته . أما

سياسة مصطفى فكانت لا تهدف إلى أقل من تحويل تركيا تحويلا كليا إلى أسلوب الحياة الغربية . وفى العشرينيات من القرن العشرين نفذ فى تركيا برنامجا ربما كان مساويا فى ثوريته لأى برنامج نفذ فى أى بلد آخر عن عمد وبطريقة منظمة فى وقت قصير كهذا . فلقد بدا كأن النهضة العلمية فى أوربا والاصلاح والثورة العلمانية (ضد دينية) العلمية العقلية التى قامت فى نهاية القرن السابع عشر والثورة الفرنسية والثورة الصناعية فى عالمنا الغربى قد تركزت جميعها فى جيل واحد وأصبحت إلزامية بحكم القانون . فتحرير المرأة ، والفصل بين الدين والدولة ، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى الكتابة باللغة التركية — كلها قوانين نفذت فى تركيا بين سنة ١٩٢٢ و١٩٢٨ .

لقد نفّذ هذه الثورة دكتاتور يعمل عن طريق حزب واحد يتمتع باحتكار السلطة . ومن المحتمل أن كثيرا مما تم لم يكن ممكنا أن يتم بهذه السرعة بأقل من هذه الطريقة التعسفية . فى عشرينيات القرن العشرين كان على تركيا إما أن تقلب نفسها بطنا على ظهر ، وإما أن تهلك . فاختار الشعب التركى البقاء بأى ثمن . وكان مما دفعته تركيا ثمنا للبقاء الخضوع لنظام هو خليط من الفاشية والنازية والشيوعية ، مع أن النظام الدكتاتورى فى تركيا الذى قام على حكم الحزب الواحد لم يصل فى تطرفه إلى حد الحكم الكلى . ومع ذلك فبقية القصة مؤثرة وتدعو إلى الأمل . ففى الانتخابات التركية التى أجريت فى سنة ١٩٥٠ تحولت تركيا من نظام حكم الحزب الواحد إلى نظام الحزبين بالاتفاق بدون إراقة دماء . فالحزب الذى استأثر بالحكم تلك المدة الطويلة خضع

لإرادة الناخبين أولا بتمكينهم من الإدلاء بأصواتهم بحرية ، وثانيا باتخاذه من النتيجة المضادة دلالة على أن الحزب الذى كان مسيطرا حتى ذلك الوقت عليه أن يتنحى عن الحكم للمعارضة . كما أظهرت المعارضة من جانبها الروح الدستورى نفسه ، فلما وجدت نفسها فى الحكم لم تسئ استخدام سلطتها باتخاذ اجراءات انتقامية ضد خصومها الذين احترموا نتيجة الانتخابات الحرة بإفساح المجال عن طواعية أمام المنتصرين للإدلاء بأصواتهم يوم الانتخابات .

ويبدو فى تركيا ، التى حاول رجال الدولة فيها أجيالا كثيرة أن يكتفوا بالفن الغربى للحرب وحدها ، كأن النظام الغربى للحكم الدستورى البرلمانى ، الذى هو أقرب إلى قلب المدنية الغربية من فن الحرب ، قد تأصلت جذوره تأصلا حقيقيا . فإذا كان ذلك كذلك كان ذلك انتصارا يذكر لروح الإنصاف والاعتدال فى السياسة التى نعتقد نحن الغربيين أنها إحدى الهبات التى يستطيع الغرب أن يقدمها للعالم . فقد رأينا منذ سنة ١٩١٧ كثيرا من الشعوب الديموقراطية جزئيا أو اسميا تنزلق إلى صور مختلفة من الحكم الاستبدادى ، مع أن بعض هذه الشعوب ، كالطليان والألمان مثلا ، لم تهتد حديثا إلى مدنيتنا الغربية ، بل كانت أعضاء مولودة فى أسرتنا الغربية . فانتصار الروح الدستورية الغربية فى الانتخابات التركية التى أجريت سنة ١٩٥٠ يعتبر معلما قد يدل على تحول المد السياسى فى العالم إجمالا .

غير أن هناك بطبيعة الحال آراء ونظما أخرى غربية نشك فى اعتبارها نعما ، وأحدها القومية الغربية . فالأتراك ، وغيرهم كثير

من الشعوب الإسلامية قد أصابتهم عدوى الروح القومية بشدة ، كما تأثروا بآراء غربية أخرى منها المفيد ومنها الضار . وعلينا أن نسأل أنفسنا عن نتيجة دخول هذا المثال السياسى الغربى المتسم بضيق الأفق إلى عالم إسلامى ورث التقليد بأن كل المسلمين إخوة بسبب دينهم المشترك برغم الاختلاف فى الجنس واللغة ومكان الإقامة . وفى عالم قضى فيه تقدم التكنولوجية الغربية على المسافات بين البلدان ، كما يتحتم على أسلوب الحياة الغربية أن ينافس أسلوب الحياة الروسية لكسب ولاء البشر — فى عالم كهذا يبدو أن التقليد الإسلامى لأخوة الإنسان مثال أعلى أفضل لمواجهة حاجة العصر الاجتماعية من التقليد الغربى الاستقلال والسيادة لعشرات من القوميات المنفصلة . وفى هذا الموقف الجديد الذى يجد العالم الغربى نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية نرى أن تقسيمه داخليا إلى نحو أربعين دولة وقومية مستقلة ذات سيادة يهدد بسقوط البيت المنقسم على ذاته . ومع ذلك ، فما زال الغرب يحتل مكانة عالية تكفى لأن تجعل « فيروس القومية » يظل معديا . والمأمول أن يوقف انتشار هذا المرض السياسى الغربى فى العالم الإسلامى على أية حال بفضل قوه الشعور الإسلامى التقليدى بالوحدة . ذلك لأن الوحدة العالمية السياسية والاجتماعية ألزم بكثير لنا ولنجاتنا الآن فى هذا العصر الذرى مما كانت فيما مضى .

ولا شك أن الشعب التركى تحت إلهام أتاتورك قد أدّى خدمة للعالم الإسلامى بأجمعه فى محاولته حل « مسألة غربية » مشتركة باتباعه أسلوب الحياة الغربية الحديث بحذافيره — حتى القومية الغربية . غير

أن البلاد الإسلامية الأخرى لا حاجة بها أن تسير بالضرورة على الدرب نفسه الذى أناره هؤلاء الرواد الأتراك .

فمثلا ، هناك البلاد الاسلامية الناطقة بالضاد والتى يتحدث أهلوها بلهجات مختلفة للغة مشتركة يتبع فى كتابتها أسلوب أدبى واحد ينتشر من شاطئ مراكش المطلة على المحيط الأطلنطى إلى الحدود الغربية لبلاد فارس ، ومن حلب والموصل شمالا إلى الخرطوم وعدن ومسقط وزنزيبار جنوبا ، والكتب والمجلات التى تنشر فى القاهرة ودمشق وبيروت يتداولها الناس فى هذه الرقعة العربية الفسيحة وما وراءها .

ذلك أن اللغة العربية هى لغة الدين الاسلامى حتى فى البلاد الاسلامية التى لا يستعملها الناس فى حياتهم اليومية ، فهل من الضرورى حقا أن يتجزأ العالم الناطق بلغة الضاد — كما تجزأت لسوء الحظ الامبراطورية الاسبانية السابقة فى الأمريكتين — إلى نحو عشرين دولة وطنية مستقلة استقلالا تعتمد فيه الواحدة على الأخرى وتعيش فى أجزاء كثيرة كهذه محكمة التحديد على النمط الغربى ، إن هذا جانب غير سار لمدنيتنا الغربية ، ويكون من المؤسف حقا أن تنقله الشعوب الناطقة باللغة العربية كما هو .

وليس ذلك فقط ، بل هناك أيضا على كل أطراف العالم الاسلامى — فى أفريقيا الاستوائية والهند والصين والاتحاد السوفيتى — أقليات إسلامية — منتشرة فى الخارج فى بلاد غير إسلامية — لا تستطيع أن تجمع كل رعاياها فى كتل جغرافية محكمة قادرة على تكوين دول مستقلة ذات سيادة بهذا العدد . وهذه الجاليات الاسلامية المنتشرة — وهى تبلغ فى مجموعها ملايين كثيرة — ليست الجاليات الوحيدة من

نوعها كما سنرى فيما بعد . ولمثل هذه الجاليات لا يحمل إنجيل القومية الغربية ، كما سنجد ، دعوة لحياة جديدة بل قضاء بالموت . ولنأخذ مثلا الجالية الاسلامية المنتشرة على سطح شبه القارة الهندية . فعندما انسحبت بريطانيا العظمى من الهند سنة ١٩٤٧ ، لم يتبع روح القومية الغربي ، لسوء الحظ ، المثال الطيب الذى ضربه ممثلو تلك الدولة الغربية الخاصة التى كانت قد أدخلت هذا المذهب السياسى إلى الهند . فقوميتنا الغربية بقيت بعد رحيل الإداريين البريطانيين السابقين لتحدث انقساما فى شبه قارة كانت قبلا متحدة وتخلف وراءها دولتين متنازعتين — الاتحاد الهندوسى الهندى وباكستان المسلمة — وكان هذا الانقسام وبالا عليهما جميعا . فالاتحاد الهندى شىء أقل من الهند المتحدة . وباكستان بلد يتكون من شظيتين يفصل بينهما عرض اتحاد الهند بأكمله . وحتى بعد إعمال المنشار بهذه الطريقة وجد الملايين من الهندوس ومن المسلمين الهنود أنفسهم يعيشون على الجانب المغاير من الحدود الجديدة ، فواجهوا مشكلة قاسية هى أن يختاروا بين هجر بيوتهم أو الوقوع تحت حكم حكومة لن تكن لهم الحب .

إن الباكستانيين يملكون الآن دولة قومية خاصة بهم ، وهى دولة كبيرة مزدحمة بالسكان ، ولكن هؤلاء المسلمين الهنود كان عليهم أن يدفعوا لذلك ثمنا أغلى مما دفع الأتراك ، وأغلى كثيرا مما دفع المصريون . ولقد دلتهم التجربة على مقدار ثمن قوميتنا الغربية وعلى ما بها من عيوب . وهكذا يتعلم الباكستانيون ، وكذلك الأتراك دروسا سياسية لن يقتصر نفعها على الشعوب الإسلامية الأخرى فقط ، بل يشمل العالم إجمالا .

المحاضرة الثالثة :

الهند والغرب

فى تصادم الهند بالغرب تجربة واحدة لم يشارك الهند فيها أى مجتمع آخر فى العالم . فالهند عالم كامل فى ذاتها ، وهى مجتمع يساوى فى عظمه مجتمعنا الغربى ، كما أنها المجتمع الوحيد غير الغربى الذى لم تهاجمه وتضربه الأسلحة الغربية فقط ، بل أيضا اجتاحته وقهرته ، ولم تقهره فقط بل أيضا حكمه إداريون غربيون بعد ذلك . واستمر هذا الحكم الغربى فى بنغال قرابة مائتى سنة ، وفى البنجاب أكثر من مائة سنة . ولذلك كانت تجربة الهند للغرب أشد إيلاما وإذلالا من تجربة الصين وتركيا ، وأكثر كثيراً من تجربة روسيا واليابان ، ولكنها كانت ، لهذا السبب وحده ، أكثر وثاقة . وقد كان تعدد الصلات الشخصية بين الهنود والغربيين أكثر من غيرهم ، وربما كان لقوتنا الغربية أثر أعمق فى نفوس الهنود .

ولولا أن أسلحة المسلمين قهرت الهند أولا لكان من المحتمل ألا تتغلب عليها الأسلحة الغربية بعد ذلك . ولقد ذكرنا القارىء قبلا أن آخر موجة من الغزاة المسلمين للهند عن طريق البر وصلت بعد مضى سنوات قلائل على أول وصول بحراً لأول موجة برتغالية من البحارة الغربيين فى سنة ١٤٩٨ . وأولئك المسلمون المغول قد سبقوا الغربيين

البريطانيين فى إخضاع معظم الهند لحكومة واحدة. وربما لم يكن للسلام المغولى فى الهند من الأثر الفعال ما كان للسلام البريطانى الذى تلاه وهو فى أوجه، ولكن السلام المغولى دام بقدر ما كان للسلام البريطانى أن يدوم، ولكنه عند ما تحطم فى القرن الثامن عشر ترك تراثاً لم يجعل من الصعب كثيرا على خلفائهم البريطانيين أن يعيدوا جمع شظيات الإمبراطورية المغولية. وكان من ضمن التراث المغولى نظام إمبراطورى للدخل من الأراضى، وهو نظام سار بقوة الدفع الذاتية خلال دورة الفوضى فى الهند فى القرن الثامن عشر. ولقد استمر هذا النظام لأنه كان قد أصبح عادة هندية. ولذا كان مما ورثه الخلفاء البريطانيون أيضا عن أسلافهم المغول وانتفعوا منه تهيئة قلوب الهنود وعقولهم للخضوع، بحكم العادة، لنظام إمبراطورى فرضه على الهند فاتحون أغراب عنها.

والحكام البريطانيون الذين خلفوا المغول قضوا على إنهاضهم للحكم المغولى، عند ما بدأوا عمدا فى ثلاثينات القرن التاسع عشر يغيرون العادات التى غرسها حكام الهند من قبلهم من المغول فى نفوس الهنود. ذلك أن الحكام البريطانيين فى الهند فتحوا نافذة للعقول الهندية تطل منها إلى الغرب بأن استبدلوا بالتعليم العالى الإسلامى والهندوسى التعليم الغربى، وبذلك قدموا للهنود آراء حكامهم البريطانيين الخاصة عن الحرية والحكم البرلمانى الدستورى والقومية. وأقبل الهنود على التعليم السياسى الغربى. وكانت النتيجة أنه حملهم على المطالبة للهند بالحكم الذاتى الذى تستمتع به بريطانيا العظمى، كما حمل البريطانيين أخيرا على منحه لهم. واليوم يكرس الحكام الهندوس فى الاتحاد الهندى

والحكام المسلمون فى باكستان الذين خلفوا الحكم البريطانى جهودهم فى حكم كل منهم لنصيبه من شبه القارة الهندية ، على الأسس التي كان البريطانيون فى الهند يتبعونها فى تسيير دفة الحكم فى بريطانيا العظمى منذ سنة ١٦٨٨ .

وربما كان جديرا بالذكر بنوع خاص أن الحكام الهندوس الحاليين فى الجزء الأكبر من شبه القارة الهندية كان يجب أن يختاروا ، وقد فعلوا ، مواصلة الحكم على الأسس الغربية التى وضعها فى الأصل فاتحون غرباء . وفى الأراضى التى يشملها الاتحاد الهندى أصبح الهندوس سادة فى بيتهم الخاص لأول مرة منذ فتح المسلمون الهند قبل ثمانمائة أو تسعمائة سنة . ففى القرن الثامن عشر عند ما كان حكم المغول الإسلامى يتصدع مرت لحظات فيها كان يبدو كأنه سيتلوه على الفور قيام دول هندوسية تخلفه . وبدا لفترة ما أثناء التسابق على اقتناص تراث المغول فى القرن الثامن عشر أن دولة هندوسية ماراتية كانت تسرع فى طريقها إلى الفوز بنصيب الأسد من الغنائم . ولكن أحبط محاولة القرن الثامن عشر هذه لتغيير الحكم المغولى بحكم هندوسى ماراتى تدخل يد غربية أقوى . غير أن قيام حكم بريطانى بدلا من حكم ماراتى لم يوقف نهوض الهندوس فى بلادهم . وعند ما انتهت الخطة العسكرية التى اتخذتها النهضة الهندوسية فى القرن الثامن عشر إلى فشل عسكرى تحول المجرى الذى تجمعت فيه الطاقة الهندوسية إلى اتجاه مختلف . فتحت الحكم البريطانى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، كما حدث خلال القرن الثامن عشر وهو الفترة التى توسطت الحكم المغولى والحكم البريطانى ،

واصل الهندوس حصولهم على القوة باطراد ، ولكن تحت الحكم البريطانى كان حصولهم عليها لا عن طريق قوة السلاح ، بل عن طريق إتقان النظم الغربية للتعليم والإدارة والقانون التى كانت السبل إلى القوة فى عالم يريد أن يتبع أساليب الحياة الغربية .

لقد كان الهندوس أسرع من المسلمين الهنود إلى رؤية واقتناص الفرصة التى كانت متاحة ، فى عهد غربى من التاريخ الهندى ، للهنود الذين نهضوا بطريقة فعالة بفنون السلم . فعلى العكس من المسلمين الهنود لم يكن لدى الهندوس ذكريات موهنة للعزم عن قوة ومجد حديثى الضياع تجعلهم يستمرون بلا جدوى فى ندب ماض ميت بدلا من شق الطريق إلى المستقبل . وهكذا استمر ميزان القوى الذى كان قد بدأ يميل ضد مصلحة المسلمين خلال قرن من الفوضى — الثامن عشر — استمر فى غير مصلحتهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين تحت سلم بريطانى شجع المقدرة العقلية ، بدلا من البسالة العسكرية ، باعتبارها مؤهلا للتقدم فى التنافس المستمر بين الهندوس والمسلمين الهنود الذين كانوا جميعا رعايا للتاج البريطانى سواء بسواء . غير أن مسلمى الهند — بطبيعة الحال — نهجوا فى نهاية الأمر نهج مواطنيهم الهندوس . فأخذوا هم أيضا فى إتقان فنون مدنيتنا الغربية . ومع ذلك فعندما قرب موعد التصفية الاختيارية للحكم البريطانى فى الهند أصر المسلمون الهنود على أن يصحب إعادة تسليم الحكم البريطانى فى الهند إلى الهنود تقسيمها إلى دولتين جديدتين : دولة هندوسية ودولة إسلامية . وفى الواقع كان هذا الإصرار على الفصل تقريرا لحقيقة : هى أنه منذ أيام أباطرة المغول

الكبار كان هناك تحول فى ميزان القوى بين المسلمين والهندوس فى غير صالح المسلمين . وقد خشى المسلمون الهنود أن تغمرهم الغالبية الهندوسية من السكان إذا بقوا فى دولة هندوسية إسلامية مشتركة تشمل جميع شبه القارة .

ومع أن باكستان بأغلبيتها المسلمة انفصلت فى سنة ١٩٤٧ عن اتحاد الهند وأغلبيته هندوسية ، فإن هدف الدولتين اللتين خلفتا الإمبراطورية الهندية البريطانية لا يزال حتى الآن هدفا واحدا . فنى الفصل الأول من تاريخهما كانت السلطة فى أيدى العناصر من السكان التى تلقت التعليم الغربى ، والتى كان هذا التعليم مصدر إلهامها المثل العليا الغربية . فإذا بقى هذا العنصر فى الحكم فى كل من الهند وباكستان ، كما فى سيلان أيضا أمكننا أن نعلل النفس بأن نرى رجال الدولة فى هذه البلاد الآسيوية يستخدمون مالهم من نفوذ على مواطنيهم لحضهم على أن يبقوا أعضاء فى « عالمنا الحر » . ولا شك أن نفس رجال الدولة الآسيويين هؤلاء سيظلون يطالبون بأنه فى « العالم الحر » الذى سيكون موطن الشعوب الغربية والآسيوية يجب ألا يكون هناك تفرقة غير عادلة أو مثيرة للبغضاء ضد أعضاء الأسرة من الآسيويين ، كما أن علينا نحن الغربيين أن نرضى إخواننا الآسيويين فى هذه النقطة بالذات ، إذا كنا حقا مخلصين فى تسمية عالمنا بالعالم الحر . ومالم نفشل نحن الأعضاء الغربيين فى العالم الحر فشلا ذريعا فى تطبيق المبادىء الحرة التى ننادى بها ، أمكننا أن نرجو أن نرى أن الحكام الحاليين للهند وباكستان وسيلان بتدريبهم وتفكيرهم الغربيين يستمرون فى الشركة معنا .

إن أحد المصالح الحيوية للشعوب الغربية الاحتفاظ بشركتنا هذه مع شعبي شبه القارة الهندية ، لأن هذين الشعبين الهنديين يكونان معا أحد الربعين الآسيويين من الجنس البشرى . ولنلاحظ أنه ما انقضت سنتان على الخطوة التى خطتها بريطانيا العظمى لمصالحة آسيا مع الغرب بإتمام تصفية الحكم البريطانى فى سيلان وباكستان والاتحاد الهندى وبورما حتى انتقلت الصين ، وهى تكوّن ثانى الربعين الآسيويين من الجنس البشرى ، من المعسكر الغربى إلى المعسكر الروسى . فإذا كنا بعد أن ضاعت منا صداقة شبه القارة الصينية بهذه الكيفية تضيع منا أيضا صداقة شبه القارة الهندية فإن روسيا ستكسب من الغرب كل العالم القديم ما خلا رأسى جسرين فى غرب أوربا وأفريقيا. وقد يكون هذا بحق حدث حاسم فى الصراع لأجل القوة بين « العالم الحر » والشيوعية. ذلك أن اتحاد الهند ، وهو الدولة التى خلفت الامبراطورية البريطانية وتشمل معظم شبه القارة الهندية ويغلب فيها العنصر الهندوسى — هذا الاتحاد يشغل مركزا له اعتباره فى عالم اليوم المنقسم على ذاته الذى فيه تتنافس الولايات المتحدة وشريكاتها مع الاتحاد السوفيتى وشريكاته على القوة العالمية . فإلى أى جهة يميل الخمس الهندوسى من الجنس البشرى يا ترى ؟ وللاجابة على هذا السؤال دعونا ننظر إلى بعض الاعتبارات التى تؤيد أو تناقض احتمال استمرار الهندوس فى السير مع الغرب .

ولنأخذ أولا نقطة تدعو إلى الأمل . إن العلاقات الشخصية بين الهنود والغربيين تبدو كأنها أكثر ودا مما كانت فى أى وقت مضى .

ولا شك أن كثيرين من مواطنى المملكة المتحدة قد جربوا الدهشة والتأثر ، وقد جربهما كاتب هذه السطور عدة مرات منذ سنة ١٩٤٧ ، من الصداقة التى يخرج الهنود عن مألوف عادتهم ليبدوها للبريطانيين . فلقد حدث هذا مع الكاتب عدة مرات فى بلاد أجنبية حيث كان المراقبون المحليون يترقبون الفرص ليروا حقيقة العلاقات بين الهنود والبريطانيين فى الوقت الحاضر ، وقد وجد الكاتب الهنود الذين يشغلون مراكز بارزة فى الخارج يذهبون مدى أبعد من المألوف ليبينوا أن النفور التعس السابق الذى كان بينهم وبين البريطانيين قد دفن من جانبهم. ولما أتمت بريطانيا العظمى إنجاز وعدها بتصفية حكمها فى الهند، يبدو أن هذا كان مفاجأة للهنود ، لأنهم ربما لم يعتقدوا اعتقاداً أكيدا أن البريطانيين كانوا يعتزمون يوما ما إنجاز وعودهم للهند . ولذلك عندما أتم البريطانيون وعدهم فعلا حدث تبدل فى الشعور من جانب الهنود وانقلبت العداوة إلى صداقة . وإنه لأمر جميل من الهنود أن يجعلوا صداقتهم الجديدة للبريطانيين بادية للعيان ، وأن هذا التغير السعيد فى العلاقات بين الهنود والبريطانيين هو بكل تأكيد كسب لعالمنا الحر إجمالا .

بيد أن النفور بين الهند والعالم الغربى الذى تمثله فى نظر الهند بريطانيا العظمى يرجع إلى ما قبل بدء حركة الهند الاستقلالية فى التسعينات من القرن التاسع عشر ، وقبل النزاع المشئوم الذى حدث فى سنة ١٨٥٧ . إنه يرجع إلى وقت إصلاح الإدارة البريطانية فى الهند الذى بدأ فى الثمانينات من القرن الثامن عشر . وميلاد النفور هذا من إصلاح فى

العلاقات بين الهنود والبريطانيين هو إحدى سخريات التاريخ . ومع ذلك فهناك علاقة داخلية أصيلة بين هذين الحادثين . فنى القرن الثامن عشر كان البريطانيون الذين أقيموا حكاما للهند أحـرارا فى معاملة رعاياهم الجدد من الهنود وليبى العريكة معهم بمعنيين : أولهما أنهم كانوا لا يترددون فى استخدام قوتهم السياسية لسلب حقوق أولئك الرعايا واضطهادهم ، وكانوا فى الوقت نفسه طلقاء فى علاقاتهم الاجتماعية معهم . ففى غير ساعات العمل كانوا يختلطون بالرعايا الهنـود ، يشربون ويتسامرون ، وإن كانوا أقل تساهلا فى وقت العمل. وكان البريطانيون الأكثر ثقافة المقيمون فى الهند فى القرن الثامن عشر يستمتعون بلعبة مناظرة زملائهم الهنود فى مقارضة الشعر الفارسى . وكذلك كان الهنود الأكثر حيوية يستمرئون ممارسة الألعاب الإنجليزية . ومما يبين الاختلاط بين الإنجليز والهنود صورة رسمها « زوفانى » فى سنة ١٧٨٦ عن مباراة الديكة التي كان يقيمها الكولونيل موردونت فى لكنو . فإن الناظر إلى هذه الصورة يرى لأول وهلة كيف كان الهنود والانجليز يسعدون بلقاء الواحد منهم للآخر . وفى الحقيقة أن الجيل الأول من حكام الهند البريطانيين كانوا يتصرفون كما تصرف أسلافهم الهندوس والمسلمون . لقد كانوا فاسدين من الناحية الإنسانية ؛ ولذلك لم يكونوا مترفعين إلى حد الغلظة . ولكن جاء مصلحو الحكم البريطانى من البريطانيين مصممين بحق على اجتثاث هذا الفساد ونجحوا نجاحا ملحوظا فى هذه المهمة الشاقة ، واستأصلوا معه عمداً هذه الألفة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن البريطانيين لا يمكن إقناعهم بأن يكونوا مستقيمين وعادلين

فوق مستوى البشر فى تعاملهم مع الرعايا الهنود ما لم يرغموا على الشعور والتصرف كما لو كانوا آلهة من المعدن لا تحس، مقامة على قواعد مرتفعة منها تطل على الخلائق البشرية من الهنود تحتها .

واليوم ، إذ يعود الهنود إلى حكم أنفسهم بأنفسهم مرة أخرى ، فلا تقوم مشكلة اللورد « كورنواليس » بشأن طريقة جعل الإداريين الغربيين فى الهند يتصرفون تصرفًا لائقًا — ليس هناك ما يحول دون أن تكون العلاقات بين الهنود والغربيين قائمة على الود واللياقة فى نفس الوقت . وهذا تغير إلى الأفضل يدعو إلى الأمل على قدر مداه ، ولكن إلى أى مدى يمتد هذا التغير ؟ ومع ذلك فالذين قابلوا فى حياتهم أو يقابلون غربيا — أو حتى عضوا من الأقلية ذات التفكير الغربى من الهنود الذين يحكمون الآن الهند بدلا من الحكام الغربيين السابقين لا يتعدون آلافا قليلة من السكان الذين يبلغ عددهم ٤٥٠ مليون نسمة . ثم لنسأل : ما هو مستقبل هذه الطبقة الجديدة الحاكمة ؟ هل تستطيع الاحتفاظ بزعامتها الحالية ؟ وهل النظرة الغربية والمثل العليا الغربية التى غرست فى نفوس هذه الأقلية بفضل التعليم الذى تلقته تستطيع أن تثبت فى هذه الحالة أمام التقاليد الهندوسية ؟

وإنه لما يدعو إلى العجب أن أقلية فى العـــالم الهندوسى العظيم استطاعت أن تصل إلى المدى الذى وصلت إليه الأقلية الحاكمة الآن فى استيعاب الآراء والمثل الغربية ، إذا راعينا مقدار الاختلاف بين النظرة الهندوسية والنظرة الغربية إلى الحياة . إننا فى المحاضرتين الأوليين اللتين كان يهمنا فيهما علاقات روسيا والإسلام مع الغرب كنا

نعالج حالتين ، كان للطرف غير الغربى الذى اصطدم معه الغرب شىء مشترك مع الغرب ، وهذا الشىء غير موجود فى الهندوسية . ومع أن الروس المعاصرين لنا ليسوا أبناء المسيحيين الغربيين ، فإنهم أبناء المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين . ولذلك فإن الديانة المسيحية والمدنية اليونانية الرومانية ـ اللتين تسلمتهما الكنيسة المسيحية وحافظت عليهما وتناقلهما عنها الخلف ـ كلتيهما جزء من تاريخ الروس الروحى ومن تاريخنا نحن فى الغرب . وكذلك المسلمون المعاصرون لنا هم أتباع دين ، يمكن أن يوصف بأنه منشق على المسيحية ، كما أن فلسفة اليونان وعلمهم هما جزءان من تاريخ المسلمين الروحى ، ومن تاريخنا نحن أيضا . وفى الواقع إذا نظر الإنسان إلى العالم المعاصر إجمالا وحاول أن يحلل الأقسام الثقافية الرئيسية فيه فى أوسع وأبسط صورة ، وجد أنه يضع المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس السابقين والمسيحيين الغربيين السابقين جميعا أعضاء فى مجتمع كبير واحد ، يمكن الانسان أن يميز بينه وبين كل من العالم الهندى وعالم الشرق الأقصى فيسميه تسمية خاصة به ، كما يسمى كلا من هذين العالمين . وبما أن التراث الروحى المشترك بيننا نحن المسيحيين والمسلمين جاءنا من مصدرين : أحدهما من اليهود والآخر من اليونان ، فيمكننا والحالة هذه أن نسمى مجتمعنا المسلم المسيحى المجتمع اليونانى اليهودى بقصد التمييز بينه وبين كل من المجتمع الهندى فى الهند والمجتمع الكنفوشى البوذى فى الشرق الأقصى .

ومن هذه النظرة من صعد كما بعين طائر ، وهى النظرة التى تشمل كل البشر ، تختفى تقريبا عن النظر كل التباينات الاسلامية والمسيحية

العدة فى أسلوب الحياة اليونانى اليهودى المشترك ، لأنها تبدو لا قيمة لها بالمقارنة بينها وبين الخواص المشتركة بيننا جميعا من مسلمين ومسيحيين أعضاء أسرتنا الثقافية اليونانية اليهودية . وعند المقابلة بين أسلوب حياتنا الاسلامى المسيحى إجمالا ، وبين الأسلوب الهندوسى أو أسلوب الشرق الأقصى ، فإن الاختلافات فى داخل أسرتنا الاسلامية المسيحية أو بين العالم المسيحى الأرثوذكسى الشرقى والعالم المسيحى الغربى ، أو بين أى من هاتين المسيحيتين والاسلام تختفى عن العيان . ومع ذلك فإننا نعلم أن هذه الخلافات الثقافية الصغيرة نسبيا يمكن أن ينتج عنها اضطرابات روحية عنيفة فى نفوس أبناء إحدى مدنياتنا اليونانية اليهودية الشقيقة هذه عند ما تقع هذه النفوس تحت الاشعاع الروحى لاحدى المدنيتين الأخريين لأسرتنا .

ولنا فى الأثر الذى أوجدته صدمة المدنية الغربية فى نفوس الروس منذ عهد بطرس الأكبر مثل جلى . ومع أن كلا الطرفين فى هذا الصدام كان عضوا فى نفس الأسرة اليونانية اليهودية ، ولكن الاضطراب الذى أوجده النوع الغربى المتطفل الغريب للروح اليونانية اليهودية ذاتها فى النفوس الروسية اليونانية اليهودية كان عظيما جداً . ويمكننا أن نقيس مقدار قسوة هذا الاضطراب نفسيا بما نراه من أثر الألم والإيلام الذى يجرى فى الأدب الروسى للقرن التاسع عشر الذى يعرب فى وضوح وقوة عن الألم الممض الذى تعانى منه النفس حين يطلب منها أن تحيا فى عالمين روحيين مختلفين فى نفس الوقت — أو حتى حين يكون هذان المدعيان بحق الولاء الروحى لتلك النفس ذوى قرابة

أحدهما للآخر . كما أننا يمكننا أن نقيس قسوة الضغط والشدة الغربيين على النفوس الروسية سياسيا بانفجار الثورة التى سببها التوتر الروحى فى سنة ١٩١٧ .

غير أن الاضطراب الذى أحدثته صدمة الغرب فى نفوس الروس ، وهو الأثر الذى طفا على السطح فى هذه المظاهر المثيرة ، هو على ما يظن أخف بكثير من الاضطراب الكامن المتولد فى نفوس الهنود من نفس القوة الروحية الغربية الغريبة . ذلك لأن اضطراب نفوس الروس ، على شدته ، لا بد أن حدته قد خفف منها تلك العناصر اليهودية واليونانية الموجودة فى التراث الثقافى الروسى ، وهى نفس العناصر الموجودة أيضا فى تراث المدنيـة الغربية الدخيلة ، بينما فى حالة التراث الهندى ليس هناك عناصر يونانية أو يهودية ، أو على أية حال لا شىء منها يستحق الذكر ، لتحد من شدة الصدمة المتسببة عن الغرب . فماذا سيكون ، إذن ، مآل هـذا التوتر الذى يظن أنه أكثر حدة بين قوة روحية أصلية وأخرى غريبـة عنهـا فى الهند ؟ إنه يبدو فى الظاهر أن أولئك الهندوس الذين اتبعوا ثقافتنا الغربية ــ وهى غريبة عنهم كل الغرابة ــ على مستويات العلم وتطبيقه الفنى ، واللغة والأدب ، والإدارة والقانون كانوا أكثر نجاحا من الروس فى التوفيق بين أسلوب حياتهم الأصلى والأسلوب الغربى مع أنه فى ذاته أجنبى عنهم أكثر منه عن الروس . ومع ذلك فلا بد أن يكون التوتر فى نفوس الهندوس شديدا ، ولا بد له ، عاجلا أو آجلا ، أن يجد وسيلة لتفريغ شحنته .

ومهما تكن وسيلة التخفيف التى تجدها نفوس الهندوس فى نهاية

الأمر فإنه يبدو واضحا لها أنها لا تجد الراحة من أثر مدنيتنا الغربية بتقبل تأثير الشيوعية . ذلك لأن الشيوعية — وهى هرطقة غربية اتبعتها روسيا المسيحية الأرثوذكسية سابقا — ماهى إلا جزء لا يتجزأ من التراث اليونانى اليهودى مثل الأسلوب الغربى للحياة سواء بسواء ، ولأن كل هذا التقليد الغربى غريب عن الروح الهندوسية .

على أن هناك عاملا واحدا فى الموقف الاقتصادى والاجتماعى فى الهند اليوم قد يفتح الباب أمام الشيوعية ، مع أنها قد تكون غريبة على البيئة الهندوسية ، وهذا العامل الهدام هو الضغط الناشيء عن زيادة عدد السكان على وسائل المعيشة . وأهمية هذه النقطة لا تخفى لأن نفس العامل يؤثر اليوم فى الصين واليابان والهند الصينية وأندونيسيا ومصر . وفى كل هذه البلاد غير الغربية جلبت صدمة الغرب معها زيادة مطردة فى موارد الطعام عن طريق الرى ، وإدخال أنواع جديدة من المحصولات ، وتحسين طرق الزراعة تحت التأثير الغربى . وفى كل مرحلة من المراحل حتى الآن استخدمت هذه الزيادة فى موارد الطعام ليس فى رفع مستوى المعيشة بين سكان وقف عددهم عند حد معلوم أو يزيدون زيادة تدريجية ، بل فى الاحتفاظ بالمستوى القديم بين أكبر عدد ممكن من السكان ، وهو مستوى بالكاد يبقى على الرمق . وبما أن التحسينات المطردة فى الإنتاج لا بد أن يتناقص أثرها إن عاجلا أو آجلا ، فإنه يبدو من المحتم أن ينخفض مستوى عدد السكان الآخذ فى التضخم ، وليس هناك حد فاصل بين المستوى الحالى ، والكارثة الخالصة على الصورة المكبرة .

وفى موقف كهذا ميئوس منه اقتصاديا ، قد تستطيع الشيوعية أن تفوز بموطىء قدم فى الهند وفى البلاد الآسيوية الأخرى التى فيها تعتبر الشيوعية أسلوب حياة غريبا عليها كالأسلوب الغربى سواء بسواء. ذلك لأن للشيوعية برنامجا إلزاميا جماعيا يقوم على استخدام الآلات ، تقدمه على أنه العلاج المعقول لحالة الفلاحين الآسيويين المضطهدين ، بينما يبدو النصح لأناس فى هذه الحالة بحل مشاكلهم بالطريقة الأمريكية هزءا وسخرية . غير أن مشكلة السكان وأثرها فى التنافس بين روسيا والغرب ستواجهنا مرة أخرى عند ما نتناول الشرق الأقصى ، وهو موضوع حديثنا فى المحاضرة التالية .

المحاضرة الرابعة :

الشرق الأقصى والغرب

أشرنا فى المحاضرة السابقة إلى أن أسلوب الحياة الغربى كان غريباً عن الهندوس أكثر منه عن الروس والمسلمين ، لأن أسلوب الحياة الهندوسى لم يكن فيه أكثر من جرعة ضئيلة من العناصر اليونانية والبهودية التي هى التراث المشترك بين الإسلام وروسيا والغرب . وأما ما هو مشترك بين الشرق الأقصى والغرب فهو حتى أقل مما يوجد منه فى البيئة الثقافية للعالم الهندوسى . صحيح أن أثر الفن اليونانى ملحوظ فى فن الشرق الأقصى ، ولكن هذا الأثر اليونانى وصل الشرق الأقصى عن طريق الهند . لقد جاء إلى هناك فى أذيال الديانة الهندية ، ألا وهى البوذية ، التى خضع لها عالم الشرق الأقصى ، كما خضع العالم اليونانى الرومانى لديانة يهودية الأصل ألا وهى المسيحية . كما أنه صحيح أيضاً أن ديانة أخرى يهودية الأصل أيضاً — الإسلام — انتشرت فى الجزء الأكبر من الهند بحكم الفتح . كما انتشرت أيضاً فى الأطراف الغربية للصين عن طريق التوغل السلمى . ولذلك وقع الشرق الأقصى ، كما وقعت الهند ، تحت مؤثرات من عالمنا اليونانى اليهودى قبل أن تهجم مدنيتنا الغربية الحديثة فى القرن السادس عشر . غير أن هذه التأثيرات اليونانية اليهودية (التى سبقت التأثيرات الغربية) فى الشرق الأقصى

قد كانت أخف مما كانت فى الهند . لقد كانت أخف من أن تمهد السبيل لمجىء المدنية الغربية قريبتها ، ولذلك فعند ما نزل رواد المدنية الغربية من البرتغاليين أولا على شواطىء الصين واليابان كانوا أشبه بزوار سحرة هبطوا من كوكب آخر .

أما أثر هذا الغزو الغربى الحديث فى مشاعر شعوب الشرق الأقصى فقد كان مزيجاً غير مستقر من الافتتان والكراهية ، وعند هذا اللقاء الأول تغلب الشعور بالكراهية فى النهاية ، فألقى بموجة القرن السادس عشر هذه من الدخلاء الغربيين فى المحيط الذى منه ظهرت بدون انتظار على شواطىء الشرق الأقصى . وبعد ذلك أقفلت كل من اليابان وكوريا والصين على نفسها الباب وأخذت تعيش ما أمكنها فى عزلة الناسك . غير أن هذا لم يكن ختام القصة ، فبعد أن كان الدخلاء الغربيون الحديثون قد طردوا من اليابان فى القرن السابع عشر ومن الصين فى القرن الثامن عشر ، عاودوا حملتهم فى القرن التاسع عشر . وفى هذه المحاولة الثانية أفلحوا فى إدخال أسلوب الحياة الغربى إلى الشرق الأقصى ، وكانوا قد سبقوا وأدخلوه إلى روسيا والهند وبدأوا يدخلونه فى العالم الإسلامى .

فأى فروق يمكن أن نراها فى الموقف تعلل لنا الفرق فى نتيجة هاتين المحاولتين الغربيتين المتتاليتين لإيقاع الشرق الأقصى فى الإسار ؟

إن أحد الفروق الواضحة فرق تكنولوجى . ففى القرنين السادس عشر والسابع عشر لم تكن السفن ولا الأسلحة الغربية أفضل من سفن الشرق الأقصى وأسلحته بدرجة حاسمة تمكنها من التفوق عليها . فى الجولة الأولى من الصدام بين المدنيتين بقيت شعوب الشرق الأقصى

سيدة الموقف ، وعندما قررت أنها تريد فصم العلاقات كان الزائرون الغربيون أضعف من أن يقاوموا . أما حين ظهر الغربيون مرة أخرى تجاه شواطئ الصين واليابان فى القرن التاسع عشر كان ميزان القوى يميل ناحية الغرب . ذلك أنه بينما بقيت أسلحة الصين واليابان على ما كانت عليه قبل ذلك بمائتى سنة ، كان الغربيون خلالها قد خلقوا الثورة الصناعية وعادوا مسلحين بأسلحة حديثة الصنع لم يكن لدول الشرق الأقصى ما يماثلها . وفى هذه الظروف الجديدة كان لابد أن يفتح الشرق الأقصى أمام التأثيرات الغربية بإحدى طريقتين . فدولة الشرق الأقصى التى اعتزلت العالم وحاولت أن تواجه التحدى التكنولوجى الجديد الذى جاءها من الغرب بتجاهلها ذلك التحدى كانت سترى على الفور أبوابها المغلقة وقد حطمتها المدافع الثقيلة . فلم يكن هناك من سبيل آخر سوى إبعاد الدخلاء الغربيين بتعلم كل شىء عن أسلحة القرن التاسع عشر الغربية . ولم يكن هذا ميسوراً إلا بفتح أبواب الشرق الأقصى طوعاً أمام التكنولوجية الغربية الجديدة قبل أن يدخل الغزاة الغربيون عنوة واقتداراً . ولقد كان اليابانيون أسرع من الصينيين فى اختيار هذا السبيل الآخر وسلوكه والوقوف أمام الغرب ، وذلك بتعلم طريقة استعمال أحدث الأسلحة الغربية وكيفية صنعها . غير أن الصينيين أيضاً سلكوا فى نهاية الأمر نفس السبيل فى آخر لحظة حتى لا يحل بهم مصير الهند التى أخضعتها دولة غربية .

ومع ذلك فليست هذه هى القصة كلها ، لأنه بينما قد يوضح تفوق الغرب التكنولوجى على الشرق الأقصى عن طريق الثورة الصناعية

السبب الذى لأجله وجدت شعوب الشرق الأقصى نفسها مضطرة إلى فتح أبوابها للمدنية الغربية فى القرن التاسع عشر ، بقى علينا أن نوضح لماذا كانت تلك الشعوب قد قامت لطرد زائريهم من الغربيين وقطع علاقاتهم بالغرب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . إن حل لغز اللقاء الأول بين الشرق الأقصى والغرب الحديث يبدو غريبا لأول وهلة ، ذلك لأن الغربيين عند ما ظهروا لأول مرة فى أفق أهل الشرق الأوسط فى القرن السادس عشر أبدى هؤلاء استعداداً للترحيب بأولئك الغرباء الذين كانوا غير معروفين لديهم آنئذ ، وأن يتبعوا أسلوب حياتهم أكثر مما فعلوا بعد ذلك بثلاثمائة سنة عند ما عاد الغربيون بسمعتهم السيئة التى كانوا قد اكتسبوها فى زيارتهم الأولى . ومع ذلك فإن هذا التصادم ، الذى كان اشتباك شعوب الشرق الأقصى فيه قطعا على كره منها ، انتهى بقبول أسلوب الحياة الغربى هناك ، بينما التصادم الأول الذى بدأ بالترحيب انتهى بالمقاومة والرفض . فما هو تعليل هذا الفرق العجيب بين هذين الفصلين من مسرحية تصادم الشرق الأقصى بالغرب ؟

إن الفرق فى رد الفعل الذى أحدثته المدنية الغربية فى نفوس شعوب الشرق الأقصى فى هاتين المناسبتين لم يكن عن طريق المصادفة أو الهوى ، ولكن كان رد الفعل عليهم مختلفاً ، لأن التحدى الذى واجههم فى كل من المناسبتين لم يكن واحداً . ففى القرن التاسع عشر تقدمت المدنية الغربية إلى هذه الشعوب مبدئياً على أنها تكنولوجية (تطبيق العلم) غربية . وأما فى القرن السادس عشر فكانت قد تقدمت إليها باعتبارها ديناً غريباً . فهذا الفرق فى المظهر الذى عرضته المدنية الغربية الدخيلة

يوضح رد الفعل الذى أثارته فى العقول والقلوب فى الشرق الأقصى فى كل من المرتين ، ذلك أن قبول التطبيق العلمى الغريب أيسر من قبول الدين الغريب .

فالتطبيق العلمى يعمل فى سطح الحياة ، ولذلك يبدو أن اتباع التطبيق العلمى الأجنبى أمر عملى لايتعرض الإنسان معه لخطر صيرورته غير قادر على أن يقول إن نفسه ملك له . وهذه الفكرة : أن الإنسان بتطبيقه للعلم الأجنبى يتحمل فقط مسئولية محدودة ، قد تكون بالطبع مبنية على سوء التقدير . ويبدو أن الحقيقة هى أن كل العناصر المختلفة فى أى أنموذج ثقافى لها علاقة داخلية بعضها ببعض ، بحيث أن الإنسان إذا تخلى عن تكنولوجيته التقليدية وطبق تكنولوجية أجنبية بدلا منها لا يظل أثر هذا التغير على السطح التكنولوجى للحياة مقصوراً على السطح ، بل يشق طريقه بالتدريج إلى الأعماق حتى تتقوض أركان كل ثقافة الانسان التقليدية ، وتدخل الثقافة الأجنبية شيئاً فشيئاً من الثغرة التى أحدثها إسفين التكنولوجية الأجنبية الذى دُقَّ فى الدائرة الخارجية لخطوط دفاع ثقافة الانسان الأصلية .

فإننا نستطيع أن نرى اليوم فى الصين وكوريا واليابان بعد مرور قرن أو يزيد على تاريخ بدء تغلغل تكنولوجية الغرب الحديثة فى تلك البلاد نرى هذه الآثار الثورية الآتية من الخارج على كل ثقافتها تحدث أمام نواظرنا . غير أن الزمن هو جوهر هذه العملية . فهناك نتيجة ثورية بادية بوضوح اليوم أمام أعين الجميع لم يدركها رجال الدولة فى الشرق الأقصى منذ مائة سنة حين كانوا يتخذون على كره منهم

قرار قبول هذه التكنولوجية الأجنبية بين ظهرانيهم . وكان قصدهم ، كقصد معاصريهم الأتراك ، أن يتعاطوا من التكنولوجية الغربية أقل جرعة ممكنة يتطلبها الأمن العسكرى فى بلادهم ، ولا شيء أكثر من هذا . ومع ذلك فحتى لو كان لديهم بعض الشك فى القوى الخفية التى كانت تقف لهم بالمرصاد فى داخل الإطار الحديدى « لحصان طروادة » الحديث الذى تحركه الآلات الميكانيكية ، لكان من المحتمل أن يتمسكوا بقرار إدخاله إلى بلادهم على عجلاته . ذلك لأنهم رأوا بوضوح أنهم لو ترددوا فى تطبيق التكنولوجية الغربية الغربية وقتئذ لوقعوا فى الحال فريسة للغزاة الغربيين المسلحين بأسلحة لم يكن لدى الشرقيين ما يردون به عليها : فخطر الغزو الخارجى عن طريق دولة غربية كان التهديد العاجل الذى كان على رجال الدولة فى الشرق الأقصى أن يقاوموه فى القرن التاسع عشر . وبالمقارنة رأوا أن الخطر الداخلى الناشيء عن خضوعهم فى النهاية جسداً ونفساً لأسلوب الحياة الغربى نتيجة لتطبيقهم للتكنولوجية الغربية كان أبعد زمناً ويجب أن يترك ليهتم بنفسه ، إذ « يكفى اليوم شره » .

ولهذا السبب بدا لرجال الدولة فى القرن التاسع عشر أن اتباع التكنولوجية الغربية المتفوقة وقتئذ تفوقا مذهلا كان مخاطرة مشروعة وضرورة حتمية . وهذا يوضح لنا السبب الذى دعاهم فى ذلك الوقت إلى أن يأخذوا شيئاً عن الغرب لم يكونوا فيه راغبين . فقد بدا ، على أية حال ، ضرراً أخف من ضرر هزيمتهم وخضوعهم للغربيين الذين كانوا يقررون استخدام أسلحتهم على اعتبار أنها سياسة تأمين عسكرى

وسياسى . ومن الناحية الأخرى فإن « المسألة الغربية » التى كان على أسلاف ساسة القرن التاسع عشر فى الشرق الأقصى أن يواجهوها فى القرن السابع عشر كانت قد ظهرت فى صورة جد مختلفة .

ففى ذلك الصدام الأول مع الغرب ، لم يكن الخطر العاجل الذى كان على رجال الدولة فى اليابان أن يتجنبوه رؤيتهم بلادهم تقهرها الجنود الغربية المتفوقة بأسلحتها الحديثة التى لا تقاوم ، بل كان خطر رؤيتهم شعبهم يتحول إلى ديانة أجنبية جذابة بطريقة لا تقاوم يبشر بها المرسلون الغربيون . ومن الممكن أن رجال الدولة اليابانيين فى القرن السابع عشر لم يكونوا يعترضون بشدة على المسيحية الغربية فى حد ذاتها ، لأن شعوب الشرق الأقصى فى القرن السابع عشر ، بعكس زائريهم من المسيحيين الغربيين فى ذلك القرن ، لم يكونوا مصابين بعدوى التعصب الدينى الذى كان معاصروهم الغربيون قد ورثوه عن ماضى المسيحية اليهودى الذى كانوا يعرضونه فى ذلك العصر فى حروب دينية داخلية فى بلادهم الأوربية . فرجال الدولة الصينيون واليابانيون وقتئذ كانوا قد نشأوا على التقاليد الفلسفية الأكثر تسامحاً للديانتين الكونفوشية والبوذية . وكان من الممكن ألا يعترضوا على إفساح المجال أمام ديانة أخرى ، لو لم يشتبهوا فى أن النشاط الدينى الغربى للمرسلين المسيحيين مبعثه هدف سياسى آخر .

وأما ما كان يخشاه رجال الدولة اليابانيون فهو أن مواطنيهم الذين كان يحوّلهم المرسلون الأجانب إلى المسيحية الغربية يتشربون روح

التعصب فى الديانة التى اعتنقوها ، وأنهم تحت هذا التأثير المفسد للأخلاق يرضون بأن يستخدموا كما يستخدم ما يسمى فى الغرب اليوم « بالطابور الخامس » . فإذا قدر لهذه الخطة المشتبه فيها النجاح ، أمكن البرتغاليين أو الأسبان ، الذين لم يكونوا فى حد ذاتهم تهديداً خطيراً على استقلال اليابان ، أن يدبروا خطة لقهر اليابان عن طريق أسلحة الخونة اليابانيين . وفى الواقع أن الحكومة اليابانية فى القرن السابع عشر كانت تحرم الديانة المسيحية وتضطهدها لنفس الباعث الذى يدفع اليوم الحكومات الغربية فى القرن العشرين إلى تحريم الشيوعية وقمعها . وقد كان عنصراً مشتركا فى هذين المعتقدين الغربيين — وأعني به التعصب الذى ورثاه عن اليهودية — ذاك الذى كان يقف حجر عثرة فى كل بلد آسيوى انتشرت فيه المسيحية .

وفى الواقع أن الدين الأجنبي العدوانى سيكون بطريقة واضحة مصدر تهديد عاجل أشد خطورة على المجتمع الذى يغير عليه من التكنولوجية الأجنبية المعتدية . وهناك سبب لهذا أعمق من خطر استخدام معتنق الدين الجديد للقيام بمهمة الطابور الخامس . وأما السبب الأعمق فهو أن التكنولوجية تؤثر على سطح الحياة فى بادىء الأمر بينما الدين يسرى رأساً إلى الجذور . ومع أن التكنولوجية الأجنبية قد يكون لها أيضاً فى النهاية أثر مضعف عميق على الحياة الروحية للمجتمع الذى ثبتت قدمها فيه ، فإن هذا الأثر يستغرق بعض الوقت حتى يظهر . لهذا يحتمل أن المدنية العدوانية التى تتخذ مظهر الدين تثير مقاومة أسرع وأقوى من المدنية التى تتخذ مظهر التكنولوجية . ويمكن أن نرى

الآن السبب الذى لأجله رُفضت أولا المدنية الغربية فى الشرق الأقصى وفى روسيا ثم عادت مرةً أخرى فلقيت قبولا . ففى روسيا فى القرن الخامس عشر ، وفى الشرق الأقصى فى القرن السابع عشر رفضت المدنية الغربية عندما كانت تتطلب تحولا إلى الصورة الغربية للمسيحية . ولم يكن من باب المصادفة أن حظها فى الحقل التبشيرى قد تحوّل تحولا كلياً من فشل ظاهر إلى نجاح مثير حالما تحول موقفها حيال الديانة التى سبقتها وجاءت هى منها من غيرة حارة إلى ريبة باردة .

هذه الثورة الروحية العظمى حلت بأوربا حوالى أواخر القرن السابع عشر حين مرت بتجربة نشوب حرب همجية غير حاسمة دامت مائة عام تحت رايات الطوائف الدينية المتنافسة ، مما حمل الشعوب الغربية على أن تشمئز ، ليس فقط من الحروب الدينية ، بل أيضاً من الديانة نفسها . وكان رد فعل تجربة مساوىء التعصب الدينى ، وهى التجربة التى جلبها العالم الغربى على نفسه فأزالت الغشاوة عن عينيه ، أنه سحب ثروته من الميدان الدينى ليعيد استثمارها فى التكنولوجية . إن هذه النبذة التكنولوجية النفعية المقتطفة من الكتاب المقدس لمدنيتنا الغربية — بعد تمزيق صفحة التعصب الدينى منها — هذه النبذة هى التى انتشرت انتشار النار المستعرة حول كل العالم خلال القرنين الماضيين والنصف من جيل بطرس الأكبر إلى جيل مصطفى كمال أتاتورك .

ولعلنا فى بحثنا عن تعليل للفرق البيِّن بين نتيجتى هجومى الغرب المتتاليين على الشرق الأقصى نكون قد تعثرنا فى « قانون » (إذا استطعنا أن نطلق عليه هذه التسمية) ينطبق ليس فقط على هذه الحالة وحدها ،

بل أيضاً على كل الصدامات بين أى المدنيات . وفحوى هذا القانون أنه إذا فصل أى جزء من ثقافة ما وأشعّ فى الخارج وحده ، كان من المحتمل أن يقابل بمقاومة أقل ، وأن يسير أسرع وأبعد من الثقافة كلها إذا أشعّت كتلة واحدة . فان تكنولوجيتنا الغربية بعد فصلها عن مسيحيتنا الغربية لم تقبلها الصين واليابان وحدهما فقط بل روسيا وبلاد غير أوربية أيضاً ، حيث رفضت حين قدمت على اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أسلوب واحد للحياة لا ينقسم بدون استثناء المسيحية الغربية أيضاً .

إن انتشار شظية التكنولوجيا التى قُدّت من مدنيتنا الغربية فى كل أنحاء العالم تقريباً منذ نهاية القرن السابع عشر أمر يؤثر فى النفس لأول وهلة ، إذا قارناه بالفشل الحقيقى فى تحويل الشعوب غير الغربية إلى أسلوب الحياة الغربى فى أوائل العصر الحديث حين كانت مدنيتنا الغربية تقدم لتقبل أو ترفض على أنها كل لا يتجزأ ـ التكنولوجيا والدين وكل مشتملاتها . غير أننا الآن ، وقد قوبل عرض الغرب لكسب العالم إلى جانبه بالتحدى الروسى ، يمكننا أن نرى أن الانتصار الظاهرى لمدنيتنا الغربية على المستوى التكنولوجى غير ثابت لنفس السبب الذى جعله انتصاراً ميسراً . وهذا السبب هو أنه كان انتصاراً سطحياً . فالغرب قد أرسل تكنولوجيته تركض حول العالم بحيلة تحريرها من اقترانها بمسيحيتنا الغربية التى تعوقها . ولكن فى الفصل الثانى من القصة التقطت روسيا هذه التكنولوجيا غير المرتبطة بشىء آخر وقرنتها بالشيوعية . وهذا الجمع الجديد الهام بين التكنولوجيا

الغربية والهرطقة الدينية الغربية يعرض الآن على شعوب الشرق الأقصى وسائر البشرية على أنه أسلوب للحياة منافس لأسلوبنا .

وفى فصل القرن التاسع عشر من القصة سرنا نحن الغربيين أن نرى اليابانيين والصينيين الذين كانوا قد رفضوا مدنيتنا الغربية فى صورتها الدينية ، يقبلون عليها فى صيغتها العلمانية التى فيها أعطيت التكنولوجيا بدلا من الديانة مكان الشرف . فثورة الميجى فى اليابان فى الستينيات من القرن التاسع عشر ، وثورة الكومنتانج فى الصين فى العشرينات من القرن العشرين ، بدتا كلتاهما فى ذلك الوقت انتصارين للمدنية الغربية العلمانية لأخريات العصر الحديث . ولكننا قد عشنا ورأينا أن التدبير الغربى العلمانى هذا خيب أملنا فى كلا البلدين . ففى اليابان ولّد عسكرية مشئومة ، وفى الصين فساداً سياسياً مفجعاً ، وفى كليهما أتت الفاجعة بنظام الحكم إلى نهاية عنيفة . وفى الصين أيضاً تبع الفشل فى أقلمة صورة من مدنيتنا الغربية هناك انتصار للشيوعية . فماذا جعل للشيوعية حظها فى الصين ؟ إن ما نستطيع أن نصل إليه أن السبب هو خيبة أمل كاملة فى تصرف الكومنتانج وهو يحاول حكم آسيا على أسس غربية علمانية جاءت مؤخراً أكثر منه حماسة عظيمة إيجابية للشيوعية . وقد نشتبه فى أن اليابانيين لو تركوا فى اختيار الطريق الذى يرجون سلوكه قد يستسلمون للشيوعية لنفس السبب السلبى .

وهناك فى كل من اليابان والصين اليوم عاملان يقفان فى جانب الشيوعية : أولهما خيبة الأمل فى التجارب الماضية لمحاولة المعيشة وفق أسلوب الحياة الغربى العلمانى ، وثانيهما ضغط عدد السكان المتزايد

بسرعة على وسائل المعيشة ـ وهو ضغط ، كما لاحظنا فى محاضرة سابقة ، يهدد أيضاً نظام الحكم الغربى الحالى فى الهند . وفى الحقيقة أننا بتقديمنا للصينيين واليابانيين صورة علمانية من مدنيتنا الغربية كنا نقدم لهم حجراً بدل الخبز ، بينما الروس بتقديمهم الشيوعية والتكنولوجيا لهم كانوا يقدمون لهم نوعاً من الخبز ـ قولوا عنه إنه خبز أسود مملوء بالرمل والحصى إذا شئتم ـ ولكنه مادة تؤكل تحتوى على ذرة من الغذاء للحياة الروحية التى بدونها لا يستطيع الإنسان أن يحيا .

ولكن إذا كانت الصين واليابان لم تستطيعا أن تتحملا صيغة القرن السادس عشر لمدنيتنا الغربية والدين جزء منها ، ولا أن تكابدا الحياة على صيغتها فى القرن العشرين وهى خلو من الدين ، فهل الشيوعية فى هذه الحالة هى البديل الوحيد ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هو أنه فى الصين وكذلك فى الهند فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قبل أن يحلم أحد بالشيوعية بزمن طويل ، وجد المرسلون الغربيون المسيحيون من الجزويت بديلا آخر وجربوه . صحيح أن هذه التجربة قابلتها الأرزاء ، ولكنها تحطمت ، لا بسبب أخطائها الذاتية ، وإنما تحطمت بسبب المنافسات والانقسامات الأليمة التى قامت بين الجزويت وبين إرساليات الطوائف الأخرى من الروم الكاثوليك .

ففى الصين والهند لم يرتكب الجزويت الخطأ الذى كانوا قد ارتكبوه فى اليابان ، ألا وهو أن يجعلوا تبشيرهم بالمسيحية عرضة للشك بأنهم يقومون به لخدمة المصالح السياسية للدول الغربية المعتدية . فالاتجاه الذى اتخذه الجزويت فى سعيهم لنشر الشيوعية فى الصين كان جد مختلف

وباعثاً على الأمل فى حد ذاته ، كما أنه فى غاية السداد اليوم بحيث أن بحثنا فى صدام الشعوب الآسيوية مع الغرب يكون ناقصاً إذا لم نأخذ بعين الاعتبار السبيل الذى اختطه الجزويت فى الصين والهند . فبدلا من أن يحاولوا ـ كما كنا نحاول نحن منذ أيامهم ـ فصل صيغة علمانية للمدنية الغربية من المسيحية ، سعوا فى أن يخلصوا المسيحية من الأجزاء غير المسيحية فى المدنية الغربية ، وأن يقدموا المسيحية للهندوس والصينيين ، لا على أنها الديانة المحلية للغرب ، بل على أنها ديانة عالمية بها رسالة لكل البشر . لقد جرّد الجزويت المسيحية من الزيادات الغربية العارضة التى لا علاقة لها بها ، وقدموا جوهرها للصين والهند فى ثوب ذهنى وأدبى : صينى للصينيين وهندى للهنود ـ ثوب لم يكن فيه زركشة غربية غير ملائمة تتنافر مع المشاعر الآسيوية . ولقد خابت هذه التجربة فى المحاولة الأولى بسبب خطأ الانشقاقات العائلية فى أحضان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يومئذ ، وهى انشقاقات لم يكن لها علاقة البتة لا بالمسيحية ولا بالصين ولا بالهند . ولكن إذا راعينا أن الهند والصين والمسيحية لا تزال فى الوجود ، فإننا يمكننا أن ننتظر ـ ونأمل ـ أن نرى محاولة التجربة مرة أخرى . فإن الانتصار الحديث للشيوعية فى الصين على مدنية غربية فصلت من المسيحية لا تقوم دليلا على أن المسيحية فى الصين لا نصيب لها فى فصل تال للتاريخ لم يظهر بعد فى أفقنا التاريخى .

المحاضرة الخامسة :

سيكلوجية التصادم

لقد كنا ندرس فى المحاضرات الأربع الأولى من هذا الكتاب أربع قصص فيها اصطدمت مدنيتنا الغربية بمجتمعات معاصرة غير غربية . فشملت نظرتنا تجارب المجتمع الروسى والمجتمع الإسلامى والمجتمع الهندى والشرق الأقصى مع الغرب . وقد تبين لنا من هذه الدراسة أن هذه التجارب الأربع المختلفة ـ تجارب تلقى الصدمة من مدنية أجنبية قد كان فيها عدد من المظاهر المشتركة . وأما الغرض من هذه المحاضرة فهو أن ننتقى ، بقصد الفحص والدراسة ، عدة مظاهر تبدو مميزة ، ليس فقط للصدامات العالمية المعاصرة مع الغرب ، بل لكل أمثال هذه النزاعات بين مدنية وأخرى ، إذ يبدو أن هناك ما يشبه سيكلوجية صدامات مشتركة ، وهو موضوع ذو نفع وأهمية عمليين فى الوقت الحاضر الذى فيه أوجدت « ملاشاة المسافة » عن طريق تكنولوجيتنا الغربية ستة مجتمعات تقف مباشرة وجها لوجه ، وكل منها حتى الأمس كان يحيا حياته الخاصة بأسلوبه الخاص ، ويكاد يكون مستقلا عن جيرانه ، كما لو كان كل مجتمع منها قد نزل على كوكب خاص به بدلا من أن يكون عائشاً فى عالم واحد مع باقى ممثلى البشرية من جنسه .

ويحسن بنا أن نبدأ بتذكير أنفسنا بظاهرة عامة بدت لنا فى المحاضرة

الأخيرة حين كنا ننظر نظرة مقارنة إلى هجومى مدنيتنا الغربية المتعاقبين على الصين واليابان . لقد رأينا أن الغرب فى الحالة الأولى حاول أن يغرى شعوب الشرق الأقصى باتباع أسلوب الحياة الغربى بجملته : بما فيه من دين وتكنولوجيا ، كما رأينا أيضاً أن هذه المحاولة لم تنجح . وأما فى الفصل الثانى من الرواية فقد شاهدنا الغرب يقدم لنفس شعوب الشرق الأقصى مقتبساً من المدنية الغربية تُرِكَ منه الدين وجعلت فيه التكنولوجيا ، بدلا من الدين ، المظهر المركزى . ولاحظنا أن شظية التكنولوجيا هذه التى قُدَّت من اللب الدينى لمدنيتنا فى أخريات القرن السابع عشر نجحت فى شق طريقها إلى حياة مجتمع فى الشرق الأقصى كان قد سبق فرد محاولة إدخال أسلوب الحيـاة الغربى كتلة واحدة بكل ما فيه من تكنولوجيا ودين وما إليهما .

وإننا نجد هنا مثلا على شىء كثيراً ما يبدو أنه يحدث عند ما يقع شعاع ثقافى لمدنية مشعة على الكيان الاجتماعى لمجتمع أجنبى . فمقاومة المجتمع الأجنبى المهاجَم تحلل الشعاع الثقافى إلى أجزائه التى يتكون منها تمـاما تحلل كما مقاومة الموشور شعاع الضوء إلى ألوانه الأصلية. كما أننا نعرف أيضاً فى علم البصريات أن بعض أجزاء الطيف لهـا قوة مخترقة أكثر من غيرها . ولقد رأينا أن هذا هو عين ما يحدث فى أجزاء الشعاع الثقافى . فنى الصدمة الأولى التى أصابت الشرق الأقصى من الغرب تغلب العنصر التكنولوجى من إشعاع المدنية الغربية على المقاومة التى صدت العنصر الدينى . وهذا الفرق بين قوة التغلغل فى كل من الجزء الدينى والجزء التكنولوجى من شعاع ثقافى ليس ظاهرة خاصة بتاريخ

العلاقات بين هاتين المدنيتين الخاصتين . ومن هنا وقعنا على مثل لأحد « قوانين » الإشعاع الثقافى .

عند ما يتحلل شعاع ثقافى أثناء ســيره إلى عناصره ـ الدين والتكنولوجيا والسياسة والفن وما إليها ـ بسبب مقاومة المجتمع الأجنبي الذى يصطدم به فإن العنصر التكنولوجى يكون عرضة لأن يتغلغل أسرع وأبعد من العنصر الدينى . ويمكننا أن نصوغ هذا القانون فى عبارة عامة فنقول : إن قوة التغلغل لأى عنصر من إشعاع ثقافى تتناسب تناسبا عكسياً مع القيمة الثقافية لهذا العنصر . فالجزء التافه يثير فى المجتمع المهاجم مقاومة أقل من الجزء الحيوى ؛ لأن التافه لا يهدد بإحداث اضطراب عنيف أو مؤلم فى الأسلوب التقليدى لحياة ذلك المجتمع . ومن الواضح أن هذا الانتقاء التلقائى لأتفه العناصر فى أية ثقافة مشعة لتنتشر فى الخارج إنتشاراً واسعاً هو فى الواقع قانون يؤسف له فى مسابقة العلاقات الثقافية . ولكن مكافأة التفاهة ليست أسوأ نقطة فى هذه المسابقة . فإن عملية التحليل ذاتها ، وهى من جوهر المسابقة ، تهدد بتسميم حياة المجتمع الذى تتغلغل فى تكوينه الاجتماعى العناصر المتعددة لشعاع ثقافى متكسر .

ويمكننا أن نستعين بأمثلة مشابهة من علمى الطبيعة والطب لتوضيح هذه النقطة . إننا منذ كشف حيلة تفتيت الذرة تعلمنا ، على حسابنا ، أن الجزيئات التى تتكون منها الذرة لعنصر غير مؤذ يبطل عدم أذاها ، وتصبح شديدة الضرر لدرجة الخطورة فى اللحظة التى فيها تنفصل عن مجتمع الجزيئات المنظم الذى تتكون منه الذرة وتنطلق متحركة وحدها

تعمل مستقلة عن غيرها . كما تعلمنا أيضا ـ ليس على حسابنا فى هذه المرة ، بل على حساب الباقين من ممثلى الإنسان البدائى ، وكانوا يوما ما يعيشون عيشة العزلة ـ تعلمنا أن المرض الخفيف الوطأة بالنسبة لنا ولطول تفشيه بيننا كوّنا مقاومة فعالة ضده ، قد يكون مميتا بالنسبة لسكان جزائر البحار الجنوبية الذين لم تكن لهم به خبرة سابقة ثم يتعرضون له فجأة بوصول حامليه من الأوروبيين إليهم والإقامة بينهم .

قياسا على هذا نقول إن العنصر المنفلت من إشعاع ثقافى مثله مثل الإلكترون المتفتت من الذرة أو المرض المعدى المنتقل . فقد يكون قتالا حين ينفصل عن النظام الذى كان يكوّن جزءا منه وينطلق هائما وحده فى الخارج فى وسط مختلف . ففى وضعه الأصلى كان هذا العنصر الثقافى أو البكتيريا أو الإلكترون يحول بينه وبين إيقاع الأذى، بقاؤه فى حدود النظام الذى تتطلبه علاقته بالعناصر الأخرى لأنموذج فيه كل الأجزاء المشتركة فى تكوينه متوازنة . وعند انطلاق الجزىء ، المتحرر أو البكتيريا أو العنصر الثقافى من وضعه الأصلى لن تتغير طبيعته ، ولكن الطبيعة نفسها ستحدث أثرا مميتا بدلا من الأثر عديم الضرر ، بما أن ذلك العنصر قد تحرر من علاقاته الأصلية. وفى مثل هذه الظروف يمكن أن ينطبق القول : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وكذلك الحال فى مجموعة المصادمات بين العالم والغرب التى هى موضوع هذا الكتاب . فهناك مثال مشهور عن الضرر الذى يحدثه نظام يطلق حرا من وضعه الاجتماعى الأصلى ويبعث به إلى العالم يعمل بمفرده ظافرا ومظفرا . ولقد رأينا خلال القرن ونصف القرن الماضيين

نظامنا السياسى الغربى الحديث الأخير « للدول القومية » يحطم حدود مسقط رأسه فى غرب أوربا ويشق طريقه بين إثارة الاضطهاد والمذابح وطرد الأهلين من ممتلكاتهم إلى شرق أوربا وجنوب غرب آسيا والهند، وكلها أقاليم لم تكن « الدول القومية » جزءاً لا يتجزأ من نظامها الاجتماعى الأصلى ، بل كانت نظاما خارجيا مستورداً لتلك البلاد عمداً من الغرب ، ليس لأنه وجد بالاختبار ملائما للظروف المحلية لتلك البلاد غير الغربية ، بل فقط لأن قوة الغرب السياسية كانت قد اكسبت نظم الغرب السياسية هيبة غير معقولة فى أعين غير الغربيين ولكنها مع ذلك هيبة لا تقاوم .

والدمار الذى أحدثه تطبيق نظام « الدول القومية » الغربى فى تلك الأقاليم التى كان فيها وارداً خارجيا هو أعظم بما لا يقاس من الضرر الذى أحدثه النظام نفسه فى بريطانيا وفرنسا وبلاد غرب أوربا الأخرى التى نما فيها هذا النظام نمواً طبيعيا تلقائيا ولم يكن ابتداعا جديداً دخيلا عليها .

من هذا نرى السبب فى أن النظام نفسه كان له آثار جد مختلفة فى هاتين البيئتين الاجتماعيتين المختلفتين . لقد كان نظام « الدول القومية » بلا ضرر نسبيا فى غرب أوربا للسبب نفسه الذى يعلل نشأته هناك ، وذلك لأنه فى غرب أوربا يطابق العلاقة المحلية بين توزيع اللغات وبين امتداد الحدود السياسية . ففى غرب أوربا حدث فى معظم الحالات أن الناس الذين يتكلمون لغة واحدة حشروا معا فى بقعة من الأرض متصلة مزدحمة بهم داخل حدود لغوية واضحة المعالم إلى حد ما تفصلها

عن بلاد مماثلة تتكلم لغات أخرى . وفى أقليم ، كالذى نحن بصدده ، يجعله توزيع اللغات أشبه « باللحاف المرقع » ، تضع خريطة اللغات الأساس الملائم للخريطة السياسية ، وتكون « الدول القومية » ، لذلك نتائج طبيعية للبيئة الاجتماعية . وتتفق معظم بلاد الدول التاريخية لغرب أوربا ، فى الواقع ، مع رقع خريطة اللغات على وجه التقريب . وحدث هذا الاتفاق فى معظم الحالات عن غير قصد . ذلك أن شعوب غرب أوربا لم يكونوا يدركون إدراكا عميقا العملية التى بها صُبت بلادهم بحدودها السياسية فى قوالب لغوية . وترتب على ذلك أن روح القومية كانت على وجه الإجمال هادئة فى بلاد غرب أوربا . وأما الأقليات اللغوية التى وجدت نفسها فى غرب أوربا فى الجانب الخطأ من الحدود السياسية ، فقد أظهروا فى معظم الحالات ولاءهم للبلاد التى وجدوا فيها وعوملوا بالاحترام، لأن تعايشهم مع الأغلبية التى تتكلم « اللغة القومية » باعتبارهم مواطنين فى نفس الكومنولث كان حقيقة تاريخية لم يتعمد أحد إحداثها واعتبرها الكل لهذا السبب قضية مسلما بها .

هذا عن غرب أوربا . ولننظر الآن فيما حدث حين أشع نظام غرب أوربا هذا الذى كان فى مسقط رأسه نتاجا طبيعيا للخريطة اللغوية المحلية - أشع خارج تلك البقعة فى أقاليم تقوم فيها خريطة اللغات على نظام جد مختلف . وعندما نلقى نظرة على خريطة اللغات ، ليس فقط لغرب أوربا بل للعالم كله نرى أن أنموذج غرب أوربا الذى فيه توزع اللغات على أجزاء متجانسة محصورة واضحة التحديد تقريبا شىء خاص استثنائى . وأما فى المنطقة الأكثر اتساعا التى تمتد إلى الجنوب الشرقى من دانزج

وترينستا إلى كلكتا وسنغافورة ، فأنموذج خريطة اللغات لا يشبه « اللحاف ذا الرقع » بل الرداء الحريرى المنسوج من ألوان متعددة . ففى شرق أوربا وجنوب غرب آسيا والهند والملايو ، نجد أن الناطقين بلغات مختلفة غير مفروزين بعضهم عن بعض بطريقة واضحة ، كما هى الحال فى غرب أوربا ولكنهم مختلطون جغرافيا فى بيوت متعاقبة فى نفس شوارع المدن الواحدة والقرى الواحدة . وفى هذا الوضع الاجتماعى المختلف والأقرب إلى الطبيعى تصبح خريطة اللغات التي فيها تنسج الخيوط المختلفة الألوان بعضها مع بعض أساسا أوفق ليس لرسم الحدود بين الدول ، بل لتوزيع المهن والحرف بين الأفراد .

ولنأخذ مثلا الإمبراطورية العثمانية منذ مائة وخمسين سنة ، أى قبل أن يدخل النظام الغربى ، ذو الولايات القومية المتجانسة المحكمة والمحددة تحديداً واضحا ، دخوله الفاجع إلى هذا الميدان الأجنبى . كان الأتراك فلاحين وإداريين ، « واللازى » بحارة ، واليونانيون بحارة وتجاراً ، والأرمن أصحاب مصارف وتجاراً ، والبلغار ساسة للخيل وزارعى خضر ، والألبان بنائين وجنوداً مرتزقة ، والأكراد رعاة وحمالين ، والولاش (Vlachs) رعاة وباعة جائلين . ولم تكن الجنسيات مختلطة فقط على أنها حقيقة جغرافية ، ولكنها كانت أيضا تعتمد الواحدة منها على الأخرى اقتصاديا واجتماعيا . وكان هذا التوافق بين الجنسيات والمهن نظام الطبيعة فى عالم لم تكن خريطة اللغات فيه مكونة من رقع ، بل خليطا من الخضر مطبوخا معا . فكانت الطريقة الوحيدة لنحت ولايات قومية فى هذا العالم العثمانى على غرار غرب أوربا هى تحويل

الخليط الطبيعى فيه إلى نظام الرقع القائم على الأنموذج اللغوى لغرب أوربا . وما كان يمكن أن يتم هذا إلا بالأساليب البربرية التى كانت تستخدم فى الواقع طيلة مائة وخمسين عاما والتى أدت إلى نتائج مدمرة فى قسم بعد آخر لميدان يمتد على طول المسافة من السوديت إلى البنغال الشرقية . وما أعظم الدمار الذى يمكن أن ينشأ عن فكرة أو نظام أو خطة حين تفلت من وضعها الأصلى وتشع وحدها خارج موطنها فى بيئة اجتماعية تصطدم فيها مع النظام التاريخى المحلى لحياتها الاجتماعية .

والحقيقة هى أن كل أنموذج ثقافى تاريخى هو كل عضوى فيه جميع الأجزاء يعتمد بعضها على بعض . ولذلك فإذا سلخ أى جزء من وضعه اختلف تصرف الجزء المعزول والكل الأبتر بطريقة تختلف عن تصرفهما حين كان الأنموذج كاملا . وهذا هو السبب فى أن « مصائب قوم » قد تكون « عند قوم فوائد » . وهناك نتيجة أخرى وهى أن الشىء الواحد يؤدى إلى الآخر . فإذا ما انفصلت شظية ما من إحدى الثقافات وأدخلت فى التكوين الاجتماعى لمجتمع أجنبى ، فإن هذه الشظية المعزولة تميل إلى أن تجر وراءها إلى الجسم الغريب الذى سكنت فيه العناصر الأخرى من النظام الاجتماعى التى تستريح إليها والتى فصلت منها بالقوة وبطريقة غير طبيعية . كما يميل الأنموذج الناقص إلى أن يعيد تكوين نفسه فى بيئة أجنبية ، وجد أحد عناصره طريقه إليها يوما ما .

وإذا أردنا أن نعرف طريقة سير العملية التى فيها يؤدى أحد الأشياء إلى شىء آخر فى مسابقة العلاقات الثقافية فلنوجه نظرنا إلى مثل أو مثلين واقعيين :

فى كتاب أزرق أصدرته المملكة المتحدة فى سنة ١٨٣٩ عن حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية جاء أن مستشفى الولادة الرئيسى بالاسكندرية يقع فى داخل نطاق الترسانة البحرية . إن هذا الأمر يقع موقعاً غريباً على الأذن ، ولكننا سنرى أنه لم يكن هناك مفر من ذلك عند ما نتتبع تعاقب الحوادث التى أدت إلى هذه النتيجة التى تبدو غريبة لأول وهلة .

قبل سنة ١٨٣٩ ظل محمد على باشا المشهور، الحاكم العثمانى العام لمصر، يعمل مدة اثنتين وثلاثين سنة ليعد نفسه بأسلحة الحرب الفعالة على الطريقة الغربية فى جيله . وقد فتح فشل حملة نابليون على مصر عينى محمد على إلى أهمية القوة البحرية ، فصمم على أن يعد بحرية مكونة من بواخر حربية على الطراز الغربى المعاصر . وأدرك أنه لن يستطيع أن يصل إلى حالة الاكتفاء الذاتى بحريا ما لم يكن فى مركز يمكنه من صنع مراكب حربية مصرية تقوم ببنائها أيد مصرية فى حوض بحرى مصرى. كما أدرك أيضا أنه لن يتوفر له الفنيون البحريون من المصريين ما لم يستخدم بمهندسين معماريين وخبراء غربيين لتدريب التلاميذ (الصبيان) المصريين. فأعلن محمد على فى الصحف عن حاجته. فأغرى نظام المرتبات والدرجات الذى عرضه الباشا الطلاب المناسبين لهذه الوظائف من الغربيين . ومع كل ذلك فطلاب هذه الوظائف من الغربيين رفضوا توقيع عقودهم ما لم يتأكدوا من أنهم يستطيعون اصطحاب عائلاتهم معهم ، كما أنهم رفضوا أن يحضروا أسرهم معهم بدون أن يتأكدوا من توفير العناية المناسبة بصحتهم وفق المستوى الغربى المعاصر للخدمة الطبية . ولذلك وجد محمد على أنه لا يستطيع أن يستقدم الخبراء الغربيين البحريين الذين هو

فى حاجة عاجلة إليهم بدون أن يستقدم أيضا أطباء يعنون بصحة زوجاتهم وأطفالهم . وحيث إن رغبته كانت مركزة فى مطمحه بأن ينشيء بحرية مصرية ، لذلك استقدم الأطباء كذلك . فوصل الأطباء والخبراء وأسرهم من الغرب معا . فأقام الخبراء الترسانة كما ينبغى واعتنى الأطباء بالنسوة والأطفال كما ينبغى أيضا فى المجتمع الغربى الجديد بمدينة الاسكندرية . ولكن الأطباء وجدوا أنهم بعد أن أدوا واجبهم نحو مرضاهم الغربيين كان لا يزال لديهم وقت للعمل . وبما أنهم كانوا من نوع الأطباء ذوى النشاط وروح الخدمة العامة ، قرروا أن يؤدوا خدمة أيضا للمصريين حولهم ، ففكروا فيما ينبغى أن يبدأوا به . وكان من الواضح أن خدمة الولادة أول عمل شعروا بوجوب تأديته . ومن ثم أقيم مستشفى للولادة فى داخل حدود الترسانة البحرية بعد سلسلة من الحوادث تدركون الآن أنها كانت لا مفر منها .

وأما مغزى هذه القصة فهو السرعة التي بها يؤدى شيء ما إلى شيء آخر فى العلاقات الثقافية والمدى الهائل الذى يمكن أن تصل إليه هذه العملية. ففى حياة أولئك جميعا كان احتجاب المرأة المسلمة التقليدى عن أية صلة بالرجال خارج منزلها الخاص يراعى بكل دقة لدرجة أنه فى تركيا القرن الثامن عشر عند ما مرضت أعز زوجات السلطان عليه ووصلت حالتها درجة الخطر ، كان أعظم ما يسمح به قانون السلوك الإسلامى للطبيب الغربى فى حالة هذه المريضة الملكية الغالية أن يجس نبض يدها الممدودة بين الستائر المشدودة حول فراش السيدة الذى لا يرى . كان هذا أقرب ما سمح به لطبيب غربى فى اتصاله بمريضة كانت حياتها من أثمن

ذخائر حاكم كان يعتبر أنه أوتقراطى . فى تلك الأيام كانت تعجز أوتقراطية السلطان عن أن تتخطى عرفا اجتماعيا إسلاميا تقليديا حتى فى مسألة حياة أو موت من كانت أقرب ما يكون إلى قلب من كانوا يقولون عنه إنه حاكم أوتقراطى . وأما فى وقت محمد على وخلال المدة نفسها فكانت السيدات يدخلن بجرأة داخل حدود ترسانة بعيدة عنهن لينتفعن بخدمات طبيب مولد أجنبى كافر . إن التخلص من الآراء الإسلامية التقليدية عن اللياقة فى العلاقات الاجتماعية بين الجنسين كان نتيجة قرار باشا مصر أن يعد نفسه بحرية على الطراز الغربى . على أن هذه النتيجة الاجتماعية غير المقصودة التى تبدو بعيدة لأول وهلة كانت قد تبعت سببها التكنولوجى خلال مدة تقل عن نصف عمر الإنسان .

إن هذه القطعة من التاريخ الاجتماعى التى يلمع بريقها ، وإن كانت لا تعتبر غير ممثلة للواقع ، تدلنا على القدر الذى وصل إليه رجال الدولة العثمانيون فى القرن التاسع عشر فى خداع أنفسهم حين خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يعدوا بلادهم بالأسلحة الغربية الملائمة ثم يوقفوا عملية صبغ البلاد بالصبغة الغربية عند هذا الحد . وبقوا على تلك الحال حتى أيام كمال أتاتورك ، فى عصرنا هذا ، حين اعترفوا لأنفسهم بالحقيقة ، ألا وهى أنه فى مسابقة العلاقات الثقافية لابد أن يؤدى الشىء الواحد إلى شىء آخر حتى يجر استخدام الأسلحة الغربية والتدريب والزى الغربيين فى أذياله ، ليس فقط تحرير المرأة المسلمة ، بل استبدال الحروف اللاتينية بالحروف الأبجدية العربية وفصل الدين عن الدولة ، وهو أمر كان سائداً لا ينازعه منازع فى كل ميدان الحياة طوال القرون الإسلامية فيما مضى .

وفى عصرنا نحن أدرك المهاتما غاندى فى الهند ، وهو الهندوسى العظيم المعاصر للرئيس كمال أتاتورك ، أن الأمر الواحد فى العلاقات الثقافية يؤدى إلى آخر بطريقة خداعة. رأى غاندى أن الملايين من خيوط القطن ، الذى ربما يزرع فى الهند ويغزل وينسج فى لانكشير لشعب الهند ، كانت تهدد بإيقاع الهند مع الغرب فى شباك من خيوط العنكبوت قد لا تلبث أن يصعب الفكاك منها كما لو كانت قيوداً من الصلب . رأى غاندى أن الهندوس لو استمروا فى ارتداء ملابس مصنوعة بالآلات الغربية فى الغرب لرغبوا فى استعمال الآلات الغربية نفسها فى الهند للغرض نفسه ، فيبدأون باستيراد آلات الغزل والأنوال الميكانيكية من إنجلترا ، ثم يتعلمون كيف يركبون هذه الآلات لأنفسهم . وبعد ذلك يهجرون حقولهم ليعملوا فى مصانع القطن والمسابك الهندية الجديدة . وعندما يكونون قد اعتادوا على تمضية وقت عملهم فى أعمال غربية فإنهم يلجأون أيضاً إلى صرف وقت فراغهم فى وسائل التسلية الغربية كالذهاب إلى دور السينما وسباق الكلاب وغير ذلك ، إلى أن يجدوا أنفسهم وقد نمت فيهم نفوس غربية فينسون كيف يكونون هندوسيين . لقد رأى المهاتما غاندى بعين النبي بذرة القطن تنمو حتى تصبح شجرة عظيمة تنشر أغصانها ظلالها على قارة بأكملها ، فدعا هذا النبي الهندوسى مواطنيه الهندوس إلى تخليص نفوسهم الهندوسية بإعمال الفأس فى جذور هذه الشجرة الغربية الباسقة ، وجعل لهم من نفسه مثلا يحتذى ، فكان يصرف كل يوم وقتاً معيناً فى غزل القطن الهندى ونسجه بالأيدى بالطريقة الهندية القديمة لتكتسى به الأجسام الهندية ، لأنه رأى أن فصم

هذه العرى الاقتصادية الجرثومية بين الهند والغرب هى الوسيلة الوحيدة الأكيدة لنجاة المجتمع الهندى من أن يصير غربياً روحاً وجسداً .

لم يكن هناك خطأ فى نظرة المهاتما غاندى . فصبغ الهند بالصبغة الغربية الذى كان يتوجس منه خيفة وطلب تجنبه كان ولا يزال ينمو بسرعة من تلك البذرة الواحدة الأصلية من القطن ، وكان علاج غاندى للهند من الإصابة بالعدوى الغربية هو العلاج الصحيح . غير أن النبى فشل فى إقناع تلاميذه باتباعه فى المحافظة على استقلال الهند الثقافى ودفع الثمن تقشفاً اقتصادياً . ولم يكن من المستطاع أن يقلع الشعب الهندى عن لبس البضائع الهندية المصنوعة بالآلات فى جيل غاندى بدون خفض مستوى معيشة الفلاحين الذى كان قد وصل إلى الحضيض وبدون تعطل الطبقات الجديدة من صناع القطن الهنود وأصحاب المصانع الهنود الذين كانوا قد برزوا من التربة الهندية فى بومباى وفى أحمد أباد مسقط رأس غاندى نفسه . ولقد ترك غاندى أثراً عظيماً وربما أثراً دائماً على تاريخ الهند وتاريخ العالم . ولكن سخرية التاريخ قد حكمت عليه أن يترك هذا الأثر ، لا عن طريق تخليص الهند من اتباع الغرب اقتصاديا ، بل بالإسراع بها فى طريق « الاستغراب » السياسى بقيادتها ظافرة إلى الهدف السياسى الغربى للحكم الذاتى القومى . وحتى عبقرية غاندى لم تكن كفءاً لمقاومة تأثير « قانون » اجتماعى لا يرحم . فى الصدام الثقافى يؤدى الشىء الواحد بكل قوة إلى شىء آخر بمجرد حدوث أصغر ثغرة فى خطوط دفاع المجتمع المهاجَم .

لقد بين بحثنا أن استقبال ثقافة أجنبية مسئولية أليمة وخطرة معا .

وتفور الفريسة الغريزى من الأمور الجديدة التى تهدد بقلب أسلوب حياته التقليدى يجعل التجربة أضر به . لأنه ، إذ يرفس المناخس ، إنما يحلل الشعاع الثقافى الأجنبى الصادم إلى عناصره المكونة له ثم يسمح متضجراً بدخول أتفه هذه الشظايا السامة لأسلوب الحياة الأجنبى وأقلها إقلاقا على أمل أنه يقدر أن يهرب بدون أن يبدى أى تساهل آخر . ثم لأن الشىء الواحد يؤدى إلى آخر يجد نفسه مضطراً إلى قبول ما تبقى من الثقافة الدخيلة « بالقطاعى » . ولا غرابة فى أن يكون موقف الفريسة الطبيعى حيال ثقافة غريبة دخيلة موقف مقاومة وعداء يسبب الهزيمة لصاحبه .

لقد كانت لنا الفرصة فى سياق دراستنا أن نلاحظ بعض رجال الدولة ، فى بلاد غير غربية صدمها الغرب ، ممن كان لهم البصر النادر ليروا أن المجتمع المعرّض لإشعاع ثقافة أجنبية أكثر أهمية ، عليه إما أن يتقن هذا الأسلوب الأجنبى للحياة أو يهلك . فلقد مر بنا من هؤلاء بطرس الأكبر وسليم الثالث ومحمود الثانى ومحمد على ومصطفى كمال ورجال الدولة الكبار فى اليابان فى عهد « الميجى » . وهذا التجاوب الإيجابى البناء مع تحدى العدوان الثقافى برهان على الحنكة السياسية ، لأنه يعد انتصاراً على الميول الطبيعية . أما الاستجابة الطبيعية فهى الاستجابة السلبية « للجندفلى » (محار) وهو يقفل قوقعته ، أو السلحفاة وهى تنسحب داخل بيتها الصدفى ، أو القنفد الذى يطوى نفسه فى شكل كرة شائكة ، أو النعامة التى تخفى رأسها فى الرمال . وهناك أمثلة هامة على رد الفعل الآخر فى تاريخ اصطدام روسيا والإسلام مع الغرب .

إن سياسة تعلم طريقة محاربة مدنية غربية عدوانية بأسلحتها هى ، ستثير شكوكا عميقة الأثر فى العقول المحافظة . يقول أصحاب هذه العقول : أليس أمثال بطرسكم ومصطفى كمالكم فى الواقع يبيعون القلعة بحجة أنهم يجعلون وسائل دفاعها من أحدث طراز ؟ أو ليس الرد الصحيح على دخول الثقافة الغربية إلى البلاد هو العزم الصادق على مقاطعة تلك الثقافة اللعينة ؟ وإذا كنا نطيع كل نقطة وعلامة من القانون الذى أمرنا به إله آبائنا ، أفلا يتحرك هو ليظهر القوة العظيمة لذراعه اليمنى ليدافع عنا ضد الأعداء الكفرة ؟

لقد كان هذا رد الفعل فى روسيا على المؤمنين القدامى الذين استشهدوا فى سبيل النقط الصغيرة فى الطقوس الدينية التى تعتبر فى نظر الأجانب نقطاً تافهة . ولقد حدث نفس رد الفعل فى العالم الإسلامى على الوهابيين والسنوسيين والإدريسيين والمهديين وعلى الشيع المتزمتة الأخرى التى انطلقت من الصحراء على طريق الحرب فى سبيل الله ضد الردة من العثمانيين الذين كانوا فى نظر المتعصبين قد خانوا الإسلام بسيرهم فى سبيل الغرب .

فمحمد أحمد المتعصب السودانى هو وبطرس الحاكم الروسى الغنى على طرفى نقيض ، ولكن لا إتقان التكنولوجيا الغربية الجديدة ، ولا التحمس للمحافظة على أسلوب الحياة التقليدى هو القول الفصل فى الرد على تحدى مدنية غربية مهاجمة . وإذا كان لابد أن نقرأ الكلمة الأخيرة ، فعلينا أن ننظر إلى الأمام ونتطلع إلى فصل من القصة هو فى تاريخ الصدام الذى لم ينته بعد بين العالم والغرب لا يزال اليوم مخبوءاً فى

طيات المستقبل . غير أننا نستطيع أن نقدم نحن هذا الفصل إذا اتجهنا إلى تاريخ اصطدام العالم بالإغريق والرومانيين . لأن سجل هذه القصة المثيرة قد كشفت عنه أدراج التاريخ من أوله إلى آخره ، حتى أصبحت كل صفحاته القديمة مفتوحة أمامنا نستعرضها متى شئنا . ولربما أمكن تفسير « شفرة » مستقبلنا فى سجل الماضى الإغريقى الرومانى هذا .

فدعونا نر إذن ماذا نستطيع أن نفهم من هذا السجل الإغريقى الرومانى .

المحاضرة السادسة :

العالم والإغريق والرومان

كلنا نعلم من تجربتنا الشخصية أن إحدى نقط الضعف التى تحيط بالكائنات الحية هى الأثرة . وفى المخلوقات ذات الوعى الذاتى يؤكد هذا التركيز على الذات وهما وخداعا . فكل نفس وكل قبيلة وكل طائفة تعتقد فى نفسها أنها « الإناء المختار » . ولا يبدو لنا خطأ اعتقادنا بقيمتنا الخاصة الفريدة بسهولة ، مع أننا يسهل علينا رؤيته إذا كان الأمر يتعلق بشخص آخر يحتضن هذا الوهم الخداع عن نفسه . فنحن الغربيين ، لأننا بشر ، نميل إلى الشعور بأن ما أديناه للعالم من خدمات خلال القرون القليلة الماضية شىء لامثيل له . أما العلاج الفعال لتصورنا الكاذب هذا فهو أن نلقى نظرة إلى الخلف لنرى ما فعله الإغريق والرومان للعالم من مدة ليست بالبعيدة جداً عنا . إننا سنجد أنهم أيضا اكتسحوا العالم فى أيامهم وأنهم كانوا يعتقدون مدة من الزمن أنهم ليسوا كغيرهم من الناس . وسنجد أيضا قبل أن نصل إلى نهاية قصة صدام العالم مع الإغريق والرومان أن التقدير الوقتى البارز للمجتمع الإغريقى الرومانى لقيمته الخاصة قد انهار عندما وضع للاختبار فى ميزان التاريخ الذى يضع الحق فى نصابه .

إن توسع الغرب فى العالم ، ذلك التوسع الذى بدأ بانتصارنا المفاجىء

المثير على المحيطات فى نهاية القرن الخامس عشر يقابله توسع العالم الإغريقى براً فى عهد الإسكندر الأكبر وبعده فى القرن الرابع قبل الميلاد . فقد أحدث زحف الإسكندر عبر قارة آسيا من بوغاز الدردنيل إلى البنجاب (فى الهند) تغيراً ثوريا فى ميزان القوة فى العالم لا يقل شأنا عن رحلات فاسكو دى جاما وكولومبس . وكما كانت الحال فى هذه الرحلات كذلك تبع زحف الإسكندر فتوحات أوسع فى الأجيال التالية . فنى القرن الثانى قبل الميلاد أخضع الإغريق بلاد الهند حتى وصلوا إلى البنغال . وفى القرن ذاته اكتسب الرومان للعالم الإغريقى الرومانى جبهة على المحيط الأطلنطى فيما يعرف الآن بجنوب إسبانيا والبرتغال . واللغة اليونانية الأصلية التى كتب بها العهد الجديد (من الكتاب المقدس) فى القرن الأول من العصر المسيحى كانت مستعملة ومعروفة من ترافنكور (فى جنوب غرب الهند) إلى الأراضى الواقعة خلف ميناء مرسيليا . وفى الوقت نفسه كانت قوة الأسلحة الرومانية تضم بريطانيا إلى العالم الإغريقى الرومانى ، بينما كان الفن الإغريقى ، وهو يخدم ديانة هندية — البوذية — يسير السلام فى الاتجاه الشمالى من أفغانستان على طول الطريق التى حملته أخيراً عبر الصين ومنها جنوبا إلى كوريا واليابان .

من هذا نرى أن الثقافة الإغريقية الرومانية ، من ناحية المدى الطبيعى البحت ، قد انتشرت فى وقتها فى العالم القديم كما انتشرت ثقافتنا الغربية فى وقتنا ، وفى عصر لم تكن قد برزت فيه المدنية الأصلية للأمريكتين كان يمكن للإغريق أن يفخروا ، كما يمكننا نحن اليوم ، بأن

كل مدينة معاصرة على وجه الأرض (كان الإغريق قد قدروا شكلها وحجمها بدقة) كانت قد وصل إليها وتوغل فيها إشعاع ثقافتهم قاهرة العالم.

ولقد كان أثر الثقافة الإغريقية على العالم فى القرن الرابع قبل الميلاد وبعد ذلك صدمة لا تقل شدة عن الصدمة التى يسببها أثر ثقافتنا الغربية على العالم منذ القرن الخامس عشر لعصرنا. ولما كانت الطبيعة البشرية لم يصبها أى تغيير محسوس خلال آلاف السنين القليلة الماضية فإنه ليس من الغريب أن نجد أن ردود الفعل السيكلوجية القياسية الأخرى لهجوم ثقافى لاحظناها فى تاريخ صدام العالم معنا نحن؛ تظهر كذلك فى تاريخ الصدام السابق للعالم مع الإغريق والرومان.

ويمكن متتبعى التاريخ أن يضعوا أمثال المهدى الذين لا يقبلون التفاهم وأمثال بطرس الأكبر الذين يتكيفون وفق الظروف فى صفين متقابلين، فيضعون فى صف بطرس الأكبر «ميثراداتس» الأكبر وهو ملك إيرانى كان فى آسيا الصغرى وأوشك أن يتغلب على الرومان بتسليح جيشه وتدريبه على النمط الإغريقى والرومانى ووقوفه فى وجه روما بطلا منافساً وحامياً لليونان وثقافتهم. كما يضعون أيضاً هيرودس الكبير ملك اليهودية الأدومى الذى انهزم لقيامه بمهمة «سيكى»[1]. لقد أخذ هيرودس على عاتقه من تلقاء نفسه مهمة تهذيب الرعايا الفلسطينيين اليهود الشديدى العناد وحملهم على قبول الحد الأدنى من

---

(١) كان المؤلف يشير هنا إلى أن هيرودس مر بخبرات متنوعة وعالج عواطف شتى، وكان سياسياً محنكا يجمع بين القسوة وحسن السياسة.

المدنية اليونانية والسلطة الرومانية ، وهو أمر بالنسبة لشعب صغير شرقى فى عالم غالبيته من الإغريق والرومان يعتبر البديل العملى لسلوك سبيل لا رجاء منه ، ألا وهو سبيل التحرش والتعرض للابادة . غير أن سياسة هيرودس وهى سياسة التوافق الحكيم مع الحقائق التاريخية القاسية قد خذلها عناد صف طويل من الزعماء اليهود الذين يشبهون المهدى . وقد بدأت هذه الحركة المعاندة فى القرن الثانى قبل الميلاد بثورة عنيفة ضد سياسة ملك إفريقى كان يحكم جنوب غرب آسيا وكان يرمى إلى صبغ مملكته بالصبغة الإغريقية (الهلينية) . وكل من يطلع على سفرى المكابيين الأول والثانى سيتولاه العجب بكل تأكيد تقريباً من التشابه القريب بين ثورة المكابيين فى فلسطين سنة ١٦٦ — ١٦٥ قبل الميلاد وثورة المهدى (محمد أحمد) فى السودان المصرى سنة ١٨٨١ ميلادية . ثم قامت ثورتان هزيلتان أخريان بقيادة أمعتين أحدهما يدعى « ثوداس » والآخر « يهوذا » الجليلى وأشار إلى فشلهما « غمالائيل » فى سفر أعمال الرسل (من الكتاب المقدس) . غير أن لهيب هذه المقاومة التعصبية اليهودية فى فلسطين قد استمر ، حتى بلغ درجته القصوى فى القرن الثانى الميلادى فى ثورة « باركوكبة » الذى أعلن عن نفسه أنه المسيح فسحقه « هادريان » الإمبراطور الرومانى وقتئذ .

بيد أن هؤلاء القادة اليهود الفلسطينيين لحركة المقاومة الشرقية للمدنية الإغريقية الرومانية ليسوا الممثلين الوحيدين لنوعهم . فقد حدث قبل نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ما يشبه « العصيان الهندى » بين الجنود المصريين الوطنيين الذين كان قد سلحهم ودربهم على الطريقة

الإغريقية ملك مصر الإغريقى للدفاع عن ملكه ضد غزو ملك يونانى معاصر فى جنوب غرب آسيا . فهزم الجنود المصريون المدربون على الطريقة اليونانية ، الجنود اليونانيين لحماً ودما من الجيوش الغازية . فانتفخت أوداج الجنود المصريين لانتصارهم المذهل على ذرية جنود الإسكندر التى لا تقهر . وحدثت بعد ذلك ثورات بين أسوأ جميع الشرقيين حظا ، الذين وقعوا تحت حكم الإغريق أو الرومان — ونعنى بهم السوريين الذين خطفوا ورحلوا إلى الخارج ليؤدوا عمل العبيد وهم مكبلون بالأصفاد فى المزارع اليونانية بجزيرة صقلية . وقبل نهاية القرن الثانى قبل الميلاد قام هؤلاء العبيد السوريون فى صقلية بثورتين يائستين ضد سادتهم اليونان والحماة الرومان لهؤلاء السادة .

.. إن القصة المرعبة للاضطهاد القاسى والثورة الهمجية فى الفصول الأولى من تاريخ صدام العالم مع الإغريق والرومان قد كان لها صداها فى فصول معروفة من التاريخ المماثل لصدام العالم مع الغرب . ففى عالم اصطبغ بالصبغة الغربية تجددت تجارة الرقيق ، التى جلبت العار يوما ما على البحر الأبيض المتوسط ، فى المحيط الأطلسى . ذلك أن ثورة عبيد المزارع التى سحقت فى جزيرة صقلية نجحت فى هاييتى . وعصيان جنود البطالسة من المصريين الوطنيين المدربين تدريباً يونانياً نجد مثيلا له فى عصيان الجنود الهنود لشركة الهند الشرقية البريطانية المدربين تدريباً غربياً . وحركات المقاومة العسكرية الشرقية للتفوق الأجنبى وهى الحركات التى تذكرنا بالثورات الفاشلة ليهود فلسطين ضد الثقافة الإغريقية ، وبالثورات الناجحة للشعوب الإيرانية المعاصرة ضد الثقافة

نفسها ــ هذه الحركات قائمة على قدم وساق فى الوقت الحاضر فى الهند الصينية والملايو ، وتهدد أيضاً بالقيام فى ثلاثة أماكن أخرى فى قارة أفريقية . ونستطيع نحن أن نقرأ القصة حتى هذه النقطة فى سجلنا الخاص بدون حاجة إلى الاطلاع على سجل الإغريق والرومان . وأما الآن فقد وصلنا بل تعدينا النقطة التى عندها يقيد الأصبع المتحرك فى صفحة سجلنا المفتوحة آخر ما لنا وما فى حسابنا الذى لا يزال مفتوحا . وأما بعد هذه النقطة التى فيها يسدل الستار على مستقبلنا فالتاريخ الإغريقى الرومانى أحسن مصدر للمعلومات المحتملة عما قد يخبئه لنا المستقبل .

على أنى لا أقصد بطبيعة الحال أننا نستطيع أن نقرأ «الطالع» بشأن مستقبلنا بملاحظة ما حدث فى التاريخ الإغريقى الرومانى وراء هذه النقطه التى عندها ينتهى سجل تاريخنا ، ثم بترجمة هذا السجل الإغريقى الرومانى بطريقة ميكانيكية إلى عبارات غربية حديثة ، ذلك لأن التاريخ لا يعيد نفسه تلقائيا ، بل أعظم ما تستطيع الآلهه الإغريقية الرومانية أن ترد علينا به هو أن تظهر لنا إحدى العقد المستقبلة المختلفة الممكنة لتمثيليتنا الخاصة . وفى حالتنا نحن فالمحتمل إلى حد كبير أن تكون النتيجة عكس النهاية التى وصلت إليها العقدة الإغريقية الرومانية .

ومن المعقول أننا نحن الغربيين ومعاصرينا غير الغربيين قد نتجه فى صراعنا بعضنا ضد بعض اتجاها جد مختلف ، ليس له مقابل فى التاريخ الإغريقى الرومانى . وبتطلعنا إلى المستقبل فإننا إنما نتلمس فى الظلام ،

وعلينا أن نحذر من أن نتصور أننا نستطيع أن نرسم الطريق المحجوب عنا قدامنا . كما أنه يكون من الحمق أيضاً ألا ننتفع إلى أقصى حد بأى شعاع من الضوء يومض أمام نواظرنا . وعلى أية حال فإن الضوء الذى تعكسه مرآة ماضى التاريخ الإغريقى الرومانى على مستقبلنا هو ألمع شعاع تقع عليه عيوننا .

فدعونا إذن ، وهذا النصح بالحذر فى أذهاننا ، نقلب صفحات التاريخ الإغريقى الرومانى حتى نصل إلى صورة العالم الإغريقى الرومانى فى منتصف القرن الثانى الميلادى . وعندما نعقد مقارنة بين هذه الصورة وبين صورة العالم نفسه قبل ذلك بمائتى عام نجد فى الحال أنه كان هناك فى تلك الفترة تغير إلى الأحسن ليس له لسوء الحظ ما يماثله فى تاريخنا الغربى حتى الآن . ففى القرن الأخير قبل الميلاد كان العالم الإغريقى الرومانى تتقاذفه الثورات والحروب وإشاعات الحروب وكان يغلى كالمرجل بالضجيج وأعمال العنف ، كما يغلى عالمنا الغربى المحموم اليوم . ولكننا فى منتصف القرن الثانى الميلادى نجد السلام سائداً من نهر الكنج إلى نهر التاين . وكل هذه المنطقة الشاسعة الممتدة من الهند إلى بريطانيا والتى انتشرت فيها المدنية الإغريقية الرومانية بقوة السلاح لا يتقاسمها إلا ثلاث دول استطاعت أن تعيش جنباً إلى جنب بأقل احتكاك ممكن . فكانت الإمبراطورية الرومانية تحكم البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط والإمبراطورية البارثية تحكم العراق وإيران والإمبراطورية الكوشية فى آسيا الوسطى وأفغانستان وهندستان . ومع أن منشئ هذه الإمبراطوريات الثلاث وسادتها هم

من أصل غير إغريقي فإنهم بالرغم من ذلك من أنصار اليونان ويفخرون بذلك بل يعتبرونه واجباً عليهم وميزة لهم أن يشجعوا النوع اليوناني من الثقافة وأن يعتزوا بحكم المدن المتمتعة بالاستقلال الذاتي والتي فيها يبقى الأسلوب اليوناني للحياة سائدا .

نحن الآن نعيش في القرن الثاني بعد الميلاد ونريد أن نرى ما في قلوب وعقول الملايين من اليونان والرومان والملايين الأكثر عددا ممن اصطبغت حياتهم بالصبغة اليونانية أو يشبه أسلوب حياتهم الأسلوب اليوناني من الشرقيين والبرابرة السابقين الذين يعيشون في ظل سلم روماني بارثي كوشي [1] . فأما مياه مد الحرب والثورة التي كانت قد غمرت نفوس الأجداد الأولين لهذا الجيل فقد انحسرت ، وكابوس وقت الاضطراب ذاك لم يعد منذ زمن طويل تلك الذكرى الحية في الأذهان . وأما الحياة الاجتماعية فقد استقرت عن طريق السياسة البناءة . ومع أن حالة الهدوء هذه قصرت عن مثل العدالة الاجتماعية فإنها حالة محتملة حتى لدى طبقة الفلاحين والعمال ، وهي بلا جدال أفضل لدى كل الطبقات من فوضى الحرب التي وضعت لها حالة الاستقرار حدا طال انتظاره . وأما الحياة الآن فهي أكثر أمنا منها في العصر السابق ، وإن تكن لهذا السبب نفسه أكثر جمودا . ذلك أن الأثر الإنساني لقيصر روما وملكي بارثيا وكوش كان كأثر الدواء المسكن . فإنهم قد كسروا من حدة المسائل الاقتصادية والسياسية المحتدمة التي كانت بمثابة الملح والسم معاً للحياة البشرية وتكاد الآن أن تصبح نسياً منسيا . فقد خلقت الحكومات التحكمية الكفية ، عن

(١) إشارة إلى الدول الثلاث التي كانت تحكم العالم الذي تأثر بالثقافة الإغريقية الرومانية.

غير قصد ، بعملها الخيرى فراغاً روحيا فى النفوس البشرية .

فكيف إذن يسد هذا الفراغ الروحى ؟ هذا هو سؤال الأسئلة فى العالم الإغريقى الرومانى فى القرن الثانى الميلادى . ولكن موظفى الحكومة العمليين والفلاسفة لا يزالون غير مدركين أن سؤالا كهذا قد جاء وقت النظر فيه . أما أولئك الذين قد قرءوا علامات الأزمنة واتخذوا إجراء فى ضوء هذه العلامات فهم المرسلون المجهولون لست ديانات شرقية . ففى الصدام الذى طال أمده بين العالم وبين الإغريق والرومان قد اختلس مبشرو الديانات الغربية بخفة يد دور المبادأة من أيدى اليونان والرومان بحيث أن تلك الأيدى القاسية لم تشعر بشىء يلمسها ، وحتى تلك اللحظة لم يتنبهوا للخطر . ومع كل ذلك فقد انحسر المد فى اختبار قوة اليونان والرومان ضد العالم . فالهجوم الإغريقى الرومانى قد استنفد قوته ، والهجوم المضاد آت فى الطريق . غير أن هذه الحركة المضادة لم تدرك أهميتها بعد ، لأنها تقوم على مستوى مختلف . ذلك لأن الهجوم كان عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وأما الهجوم المضاد فدينى . ولهذه الحركة الدينية مستقبل مدهش ينتظرها وسيبين الزمن ذلك . فما هى أسرار نجاحها المقبل يا ترى ؟ هناك ثلاثة أسرار لا يعتريها شك .

أما أحد العوامل التى تيسر قيام الديانات الجديدة وانتشارها فى القرن الثانى الميلادى فهو أن الناس قد ضاقت ذرعا بالتصادم بين الثقافات . ولقد لاحظنا الشرقيين وهم يستجيبون لتحدى ثقافة يونانية مشعة تسير فى اتجاهين متضادين . فقد كان هناك رجال دولة من مدرسة

هيرودس الكبير وكان العلاج الذى يصفونه للحياة فى جو الثقافة اليونانية الرومانية هو « التأقلم » . أما الاتجاه الآخر فهو اتجاه المتعصبين الذين كانوا ينصحون الإنسان بتجاهل تغير المناخ (الثقافى) والاستمرار فى الحياة كأن هذا التغير لم يحدث . وبعد تجربة مستفيضة لهاتين الاستراتيجيتين ، بان العيب فى كل منهما ، إذ ظهر أن التعصب[1] يجلب للدمار وأن السياسة الهيرودية غير مرضية . فأيا كانت الاستراتيجية التى اتبعت من هاتين الاستراتيجيتين ، فإن هذه الحرب الثقافية لم تؤد إلى نتيجة ما . وأما مغزى هذا التقصير عن تحقيق الغاية فهو أنه ما من ثقافة بشرية واحدة بقادرة أن تبرر زعمها الخداع بأنها التعويذة الروحية . ذلك أن العقول التى زالت عنها الغشاوة والقلوب التى صدمت فى أمانيها مستعدة الآن لقبول بشارة تسمو فوق هذه الادعاءات الثقافية القاحلة وأضدادها . وهنا الفرصة المواتية لمجتمع جديد « لن يكون فيه سكيثى ولا يهودى ولا يونانى ، ولا عبد ولا حر ، ولا ذكر ولا أنثى ، بل يكون الكل واحداً فى المسيح يسوع » — أو يكونون واحدا فى ميثرا (آله الفرس) أو سيبيل (آلهة رومانية) أو إيزيس أو أحد معبودات البوذيين مثل « أميثابها » أو ربما « أفالوكيتا » .

إن مثلا أعلى للأخوة البشرية التى ستتغلب على تصادم الثقافات هو إذن السر الأول لنجاح الديانات الجديدة . وأما السر الثانى فهو أن هذه المجتمعات الجديدة التى تفتح الباب أمام كل المخلوقات البشرية بلا تفرقة بين الثقافات أو الطبقات أو الأجناس تأتى أيضاً بأعضائها

من البشر إلى شركة مخلصة مع كائن اسمى من البشر ، لأن العظة التى تعلمها الناس وهى أن الطبيعة البشرية بدون نعمة الله لا تكفى قد نقشت نقشا عميقا على قلوب جيل شاهد مأساة زمن المتاعب الذى أعقبته سخرية سلام مقيم .

لقد جرب العالم على الأقل نوعين من ذرية الآلهة البشرية ووجدهما ناقصين ، إذ ألفى الجندى المؤله عاراً وشناراً . فالإسكندر الأكبر ، كما قال له القرصان الترهينى مواجهة فى القصة التى دونها لنا القديس أوغسطين ، كان يمكن أن يسمى قاطع طريق لا إلهاً لو كان قد فعل ما فعل مع شريكين له لا مع جيش بأكمله . وماذا عن جندى البوليس المؤله ؟ فقد جعل أغسطس من نفسه جندى بوليس بتصفية شريكيه من قطاع الطرق ، ونحن مدينون له بالشكر على ذلك . ولكن عندما يطلب منا أن نسجل شكرنا بعبادتنا هذا القاطع للطريق ، المصلح بصفته إلهاً ، فلا نستطيع أن نذعن بكثير من الاقتناع والحمية ، ولكن قلوبنا مع ذلك تشعر بالجوع إلى إله نستطيع أن نعبده بالروح وبالحق .

وأما عن الآلهة التى ظهرت فى الديانات الجديدة فإننا نجد أنفسنا فى آخر المطاف فى حضرة آلهة نستطيع أن نخلص لها بكل قلوبنا وعقولنا وقوتنا . « فثرا » سيسير أمامنا قائداً لنا ، والإلهة إيزيس سترعانا رعاية الأم لأطفالها ، والمسيح قد أخلى نفسه من قوته ومجده السماويين ليتخذ جسد إنسان ويذوق عذاب الموت على الصليب (كما يعتقد المسيحيون) لأجلنا . ولأجلنا كذلك أمتنع « بوديساطفا » (معبود بوذى) الذى وصل إلى أعتاب « نرفانه » من أن يخطو الخطوة الأخيرة

إلى حالة السعادة . لقد حكم هذا الرائد على نفسه عمداً أن يستمر ملازما إدارة طاحونة البقاء المؤلمة دهراً بعد دهر . إنه قام بهذه التضحية الكبرى حباً فى أمثاله من الكائنات المدركة التى يستطيع أن يهدى أقدامها فى طريق الخلاص مادام هو يدفع الثمن الباهظ ، ألا وهو البقاء فى حالة الإدراك والألم .

هذه كانت أساليب الدعوة التى كانت تستميل بها الديانات الجديدة غالبية الناس الذين كانوا فى العالم الإغريقى الرومانى ، عالم السلم الإمبريالى ، متعبين ومثقلين بالأحمال — كما هى حالهم فى الواقع فى كل الأوقات والأمكنة . ولكن ماذا عن الأقلية الإغريقية الرومانية المسيطرة التى كانت قد جلبت الدمار على العالم عن طريق الغزو والنهب والسلب ، وأصبحت الآن تحرس أطلاله الدارسة ، مقيمة من نفسها بوليساً حربياً عليها . لقد قضى عليهم أحد أدبائهم على لسان أحد ضحاياهم من البرابرة هذا القضاء ، إذ قال : « إنهم يوجدون الصحراء المقفرة ويسمونها سلماً » . فكيف كان سادة العالم من الإغريق والرومان الدنيويين والساخرين سيستجيبون لتحدى الهجوم العالمى المضاد على المستوى الدينى الذى كان جواب العالم على الهجوم السابق لحكامه على مستوى الحرب والسياسة ؟

إننا لو فحصنا القلوب اليونانية والرومانية فى جيل ماركس أورليوس لوجدنا فراغا روحيا هنا أيضا ، لأن غزاة العالم الأول هؤلاء ، مثلهم مثلنا نحن المقابلين الغربيين لهم فى الوقت الحاضر ، كانوا قد أطرحوا دين أجدادهم جانبا . وكان أسلوب الحياة الذى

اختاروه لأنفسهم ، وكانوا يقدمونه للشرقيين والبرابرة الذين جاءوا بهم إلى نطاق التأثير الثقافى اليونانى ـ كان أسلوبا علمانيا (ليس دينيا) جند فيه الذهن ليؤدى واجب القلب بالعمل على إيجاد فلسفات تحل محل الدين . ولكن هذه الفلسفات ، التى كان مفروضا أنها أطلقت العقل من عقاله ، قد ربطت النفس بالعجلة المؤلمة للقانون الطبيعى . وقد اعترف الإمبراطور الفيلسوف ماركوس لنفسه عن هذه الحال فقال : « إلى أعلى وإلى أسفل ، وإلى الأمام ثم إلى الخلف ، وحركة دائرية مستمرة : هذه هى حركة الكون الرتيبة المملة التى لا معنى لها . فالإنسان ذو الذكاء المتوسط متى بلغ الأربعين من العمر سيكون قد خبر كل شىء كان وكائن وسيكون » .

وفى الواقع كانت تلك الأقلية المخدوعة والمسيطرة من اليونان والرومان تقاسى من الجوع الروحى نفسه مثل أغلبية البشرية المعاصرة . ولكن الأديان الجديدة التى كانت تقدم عندئذ لكل الرجال والسيدات بدون محاباة بالوجوه كان من الممكن ألا يستطيع الفيلسوف ازدرادها لو لم يغلفها له المرسل بطبقة من السكر . ولذلك اكتست الأديان الجديدة بصور متنوعة من اللباس الإغريقى ، لكى يمكن أن تؤدى آخر وأصعب مهمة اضطلعت بها ألا وهى اجتذاب الجماهير الوثنية المتربية تربية إغريقية والتى تجاهد جهاد المستميت . فجميع هذه الأديان من البوذية إلى المسيحية (بدون استثنائهما) بدت للناظرين فى طراز الفن الإغريقى ، واتخذت المسيحية خطوة أخرى فبدت من الناحية الذهنية فى شكل الفلسفة الإغريقية .

هذا ، إذن ، هو الفصل الأخير من تاريخ اصطدام العالم بالإغريق والرومان . فبعد أن قهر الإغريق والرومان العالم بقوة السلاح ، أخذ العالم قاهريه سبايا بتحويلهم إلى ديانات وجهت دعوتها إلى كل النفوس البشرية بدون تفرقة بين الحاكمين والرعية أو بين الإغريق والشرقيين والبرابرة . فهل كشف عقدة القصة الإغريقية الرومانية هذا سيدون فى تاريخ صدام العالم مع الغرب ، ذلك الصدام الذى لم ينته بعد ؟ إنه ليس فى مقدورنا أن نقرر هذا بما أننا لا نستطيع التكهن بالمستقبل . ولكن يمكننا فقط أن نرى أن ما حدث مرة فى أحد أحداث التاريخ يجب على الأقل أن يكون أحد الاحتمالات التى تكمن فى المستقبل .

الناشر
الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع
٢٢ شارع سامى بالمالية ت: ٣٢٥٧٨ - ٢٠٨٣٨
القاهرة

نشر وتوزيع
مطبعة الدار المصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية لنشر الثقافة العالميـة
٢٢ شارع سامى بالمالية ت ٣٢٥٧٨
القاهرة



الثمن